

## الفصل الخامس

### أعلام الشعراء

١

بشار (١)

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجُوخ<sup>(٢)</sup> بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجدُّه يَرْجُوخ من طُخَارُسْتَانِ مِمَّنْ سَبَّاهِمُ المَهْلَبِ بنِ أَبِي صَفْرَةَ وَاِلى خِرَاسَانَ ( ٧٩ - ٥٨١ ) . ومِنَ أَجْلِ ذَلِكَ نَشَأَ ابْنُهُ بُرْدٌ عَلَى الرَّقِّ . وَكَانَ أَوْلَا فِي عِدَادِ رَقِيْقِ خَيْرَةِ القُشَيْرِيَّةِ امْرَأَةِ المَهْلَبِ ، ثُمَّ وَهَبَتْهُ لَامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ ، وَفِي مَلِكِيهَا وَوُلِدَ لَهُ بِشَارٌ عَلَى الرَّقِّ ، وَلَمْ تَلْبَثِ العُقَيْلِيَّةُ أَنْ أَعْتَقَتْ بُرْدًا . وَبِذَلِكَ عُدَّ هُوَ وَابْنُهُ فِي مَوَالِي بَنِي عُقَيْلٍ . وَقَدْ نَسَبَ نَفْسَهُ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ إِلَى الرُّومِ ، إِذْ يَقُولُ<sup>(٣)</sup> :

وقيصرٌ خالي إذا عددت يوماً نَسبي

وإن صح ذلك كان فارسي الأب روي الأم ، وقد ذكرها حماد عمجد في بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة<sup>(٤)</sup> ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وفي ذلك يقول<sup>(٥)</sup> :

العربي (طبع دار المعارف) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازني (طبع عيسى الحلبي) وبشار ابن برد لعمرفوخ (طبعة بيروت) وبشار بن برد لظه الحاجري (طبع دار المعارف) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده

يَهْمَنُ . انظر الأغانى ١٣٥/٣ .

(٣) الديوان ٣٧٧/١ .

(٤) الحيوان ١/٣٥٤ ، ٤/٤٥٣ .

(٥) أغانى ١٤٢/٣ .

(١) انظر في بشار وترجمته الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٣٥ ، ٦/٢٤٢ والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وقاربخ بغداد ٧/١١٢ والمختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشح للمرزباني ص ٢٤٦ ونكت المهيمان (طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة) ص ١٢٥ وامرأة الجنان للياقبي ١/٣٥٤ وشذرات الذهب ١/٢٦٤ وابن خلكان ومراجعات في الآداب والفنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعماء لظه حسين ٢/٢٣٢ وكتابنا الفن ومذاهبه في الشعر

عميتُ جَنِيناً والذكاء من العمى فجشتُ عجيبَ الظنِّ للعلم موثلاً  
 وكان أبوه طيَّاناً يعيش من ضَرْبِ اللَّبَنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال  
 إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّابَيْنِ يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّيْنِ  
 إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتتر اليد .

وحدَّدَتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مرْبِدِ  
 البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانتته نشأته في بني عُقَيْلٍ على أن يتمثل  
 السليقة العربية . ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه .  
 وكان الهجاء حينئذ يضطرم في موطنه اضطراراً لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل  
 بين جميع الشعراء ، فكان طبيعياً أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال  
 إن أباه كان يضربه بسببه ضرباً مبرحاً لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه  
 لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إني لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له  
 بشار : قلْ لهم : أليس الله يقول : ( ليس على الأعمى حَرَجٌ ) . وعادوا إلى  
 برد يرددون شكواهم ، فتتلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فقهُ  
 بُرْدٌ أغْبِطُ لنا من شعر بشار . واشتد بشار طموحه إلى إتقان العربية ، فبمَّ  
 نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكثت له في عريبة لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون  
 البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما  
 يكثر من النظم في المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه في عبد الله بن  
 عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة<sup>(١)</sup> . ولما خطب واصل بن عطاء  
 رأس المعتزلة بين يدي هذا الولى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وبيانه طويلاً<sup>(٢)</sup> ،  
 مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفي الأغاني أنه كان يحضر  
 مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب السُّنَوِيَّةِ الجوسية والدهرية  
 الهندية<sup>(٣)</sup> ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يمثّلها من مجالس  
 المتكلمين شيء من الفلسفة والمنطق، على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

(٣) أغاني ١٤٦/٣ .

(١) الديوان ١٧٢/٣ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤/١ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرجعة أو عودة الإمام الخنفي ويكفر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله بشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين<sup>(١)</sup> :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وتمادى بفضل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا<sup>(٢)</sup> :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار  
النار عنصرة وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وتصدى له صفوان الأنصاري شاعر المعتزلة يردُّ عليه وعلى ما روى إليه من تصويب رأى إبليس في عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار، في رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقصدونها، خير من الأرض . وأطال صفوان في تفضيل الأرض وذكر له العلة التي بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقه وموجدته على الدين الخفيف ، قائلا<sup>(٣)</sup> :

كأنك غضبانٌ على الدين كله وطالبٌ ذحلٍ لا يبيت على حقدٍ<sup>(٤)</sup>

غير أن بشارا مضي يعلن زندقته لا يزدجر مصرحاً بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهدته الحس<sup>(٥)</sup> . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا بيعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار في وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جبّريٌّ، بل لا شيء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية<sup>(٦)</sup> .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان مما زاد هذه الثورة في نفسه اضطراباً أن رآه يكثر من غزل ماديٍّ ثمَّ يعمدُّ خطراً أي خطر على شباب البصرة ونسائها<sup>(٧)</sup> ، فهتف به في بعض خطبه الواعظة داعياً إلى قتله

(٤) ذحل : ثار .

(٥) أغاني ٣/٢٢٧ .

(٦) نفس المصدر والصفحة .

(٧) أغاني ٣/١٨٢ .

(١) البيان والتبيين ١٦/١ والأغاني ٣/١٤٥ .

(٢) رسالة الفران لأبي العلاء (نشر كامل

كيلاني) ١٣٧/٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٩ .

بمثل قوله : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنّف<sup>(١)</sup> المكتنى بأبي معاذ من يقتله<sup>(٢)</sup> !؟ »  
وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ،  
وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائباً عنها حتى توفي عمرو<sup>(٣)</sup>  
ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . ونراه يقصد إلى حرّان في سنة ١٢٧  
فيمدح سليمان<sup>(٤)</sup> بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله<sup>(٥)</sup> ، فيتجه  
إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة وإلى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم  
قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويُغدق عليه من بَرّه وصلاته السنية<sup>(٦)</sup> ،  
ويُغدق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قيس تعصباً قوياً ،  
وصادف ذلك هوى في نفس بشار إذ كان ولاؤه لبني عَقِيلِ القيسيين ، وكان  
مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها في حروبه مع  
الثوار من بني عمه وغيرهم ، فاندفع بشار بمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه  
القيسيين فخراً عارماً .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت في سنة ١٣١ للهجرة من خراسان ،  
وطوّحت جيوشهم ببني أمية وواليتهم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم  
فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً  
في التأتاى إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ، وكانما رأى فيه بشار لحمه نسب  
تصله به إذ كان إيرانيّاً مثله ، فوفد عليه يمدحه ، وخالد يجزل له في العطاء  
والإكرام<sup>(٧)</sup> . ويحسُّ بشار في عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنّى بشعوبيته ويفخر  
بقومه الترس فخراً مسرفاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور  
العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار  
من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة مبمّية رائعة ، وسرعان

(١) المشنّف: ذو القربى ، يقال إنه كان

يلبس قرطاً وهو صغير فلُقب بالمرث من الرعاث

• ذو القربى . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغاني

١٤٠/٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٦ والأغاني ٣/١٤٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٥ .

(٤) الديوان ١/٢٩١ والأغاني ٣/٢١٧ .

(٥) أغاني ٣/٢١٨ .

(٦) أغاني ٣/٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٧) أغاني ٣/١٩٢ .

ما يخيب فأله ، إذ قمع المنصور الثورة ، ويسارع بشار فيحدث تغييرات في القصيدة ، ويجعلها في مديحه<sup>(١)</sup> ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه . ويأخذ منذ هذا التاريخ في مديح ولاية البصرة ، وخاصة سلم<sup>(٢)</sup> بن قتيبة الباهلي الذي وليها لخمسـة أشهر في سنتي ١٤٥ و ١٤٦ وعقبه<sup>(٣)</sup> بن سلم الهنأى الأزدى الذي وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١ .

ويمضى بشار في غزله الفاجر ، وكان كل شيء فيه ينفر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشأهما لحم أحمر ، ولعل هذا القبيح ونفور النساء منه هو الذى كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف . على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللاتى كانت تكتظ بهن دور القيان يُقبَلن عليه ويتغنين فى شعره . وفى هذه الأثناء يصطدم بحماد عَجْرَد وتتشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس .

ويتوفى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدي فتطمح نفسه إلى الوفاة عليه والحصول على جوائزه ، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيباني القائد الممدح المشهور كى يذكره للمهدى ويدخله عليه ، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوفه ، غير أن قائداً آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه ، فتبرع بذكره للمهدى متلطفًا ، فأمر بإحضاره ، ولم يكده يفرغ من إنشاده مدحته التى أعدّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم ووهب له عبداً وقينة وخلع عليه خيلاً كثيرة<sup>(٤)</sup> ، وجعله من سُمّاره ومن يحضرون مجالسه<sup>(٥)</sup> . وكانت فى المهدي شدة فى شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكفّ عن ذلك ، وكفّ بشار على مضض ، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولاً على إرادة الخليفة من مثل قوله<sup>(٦)</sup> :

(٤) أغاني ٢١٣/٣ .  
 (٥) ابن الممّز ص ٢١ وما بعدها .  
 (٦) أغاني ٢٣٩/٣ وانظر ص ٢٤١ وما بعدها .

(١) أغاني ١٥٦/٣ - ١٥٨ .  
 (٢) أغاني ١٩٠/٣ والديوان ٣٢٦/٢ -  
 ٢٣٨ ، ٢٠٣/٣ .  
 (٣) أغاني ١٧٤/٣ ، ١٧٨ ، ١٨٩  
 والديوان ١٠٧/١ ، ١٤٠ ، ٢١٩/٢ .

يا منظرًا حسنًا رأيتُهُ من وجه جاريةٍ فديتُهُ  
بعثتُ إلىَّ تَسْمُومِي بُرْدَ الشبابِ وقد طويتُهُ  
واللهُ ربُّ مُحَمَّدٍ ما إنْ غدرتُ ولا نويتُهُ  
أمسكتُ عنكَ وربما عرض البلاءُ وما ابتغيتُهُ  
إن الخليفةُ قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتُهُ  
ونهايتُ الملكَ الهما مٌ عن النَّسِيبِ وما عصيتُهُ

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يعغرق فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولانصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدي الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويلزم بشار البصرة إشفاقاً على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ في رثاء أصدقائه الذين يُقتلون على الزندقة<sup>(١)</sup> ، ويهجو المهدي ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعاً<sup>(٢)</sup> ويقدم المهدي إلى البصرة في سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثقون بأن بشاراً زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف ، فسيضرب سبعين سوطاً يموت على إثرها ويرمى به في البطحاء ، ويجيء بعض أهله فيحملونه ويدفونونه .

وأخبار بشار في أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجْرَد له أنه كان له امرأة تسمى أمامة<sup>(٣)</sup> ، وهو يكثر في أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ومدوحه حتى يضاعفوا له الجائزة<sup>(٤)</sup> ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمداً<sup>(٥)</sup> ، واختطف منه بنتاً صغيرة<sup>(٦)</sup> . ومر بنا في غير هذا الموضوع أنه كانت له جارية تسمى ربابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول<sup>(٧)</sup> :

وغادةٍ سوداءٍ بَرَّاقَةٍ كالماء في طيبٍ وفي لينٍ

(٥) أغاني ٣/١٦١، ٢٢٠، وانظر الديوان ٢٥٦/١ .  
(٦) أغاني ٣/٢٢٩ .  
(٧) أغاني ٣/١٩٣ .

(١) أغاني ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار ص ٢٥ وأمال المرتضى ٢/١٣٣ .  
(٢) أغاني ٣/٢٤٣ .  
(٣) أغاني ١٤/٣٦٥ .  
(٤) الديوان ١/٢٣٩ .

كأنها صيغتُ لمن نالها من عَبْرٍ بالمسك معجونٍ  
ولعلها السنديّة العجماء التي لم يتبع جنازته سواها<sup>(١)</sup> . وذكر في غزله كثيرات  
من القيّان والحواري ، وفُتِن فتونا بعبّدة ، وقد أفرد صاحب الأغاني لأخباره معها  
فصلاً خاصاً<sup>(٢)</sup> .

وواضح مما قدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة ، بل كانت معقدة ،  
فقد كان فارسي الأصل ، وورث عن الفرس حدة في المزاج ، ونشأ قيناً ابن قين ،  
وولد أعمى لا يبصر . وكان لذلك يحسُّ بغير قليل من المرارة ، وضاعفها في  
نفسه فقرأسرته وتخلفها في المجتمع . وقد رُبِّي في مهد عربي ، فأقتن العربية وتمثّل  
سليقتها بكل مقوماتها . وسرعان ما أخذ يختلف إلى حلقات المتكلمين بالمسجد  
الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة ، وليس من  
ريب في أنه اطلع على ما نقله ابن المقفع إلى العربية من الآداب الفارسية وغير  
الفارسية ومن الآراء المزدكية والمانوية . وكان ذلك كله سبباً في أن يحدث تشويش في  
فكره وأن تمتلئ نفسه بالشك والحيرة ، ولم يستطع الخلوص من ذلك فتحول زنديقاً  
يبغض الدين الخفيف ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحوّل شعوبياً يبغض  
العرب والعروبة . وكانت بيئته تكتظ بالحواري والقيان ممن لا يعصمهم من الغواية  
دين ولا عرف ، فاختلط بهن ، وتغزل فيهن غزلاً حسيّاً ، وربما دفعه فقد بصره  
إلى ذلك من بعض الوجوه ، إذ الضرير لا يرى الجمال ببصره ، إنما يحسه بلمسه  
ويده ، ويتسع جشعه الجسدي ، حتى ليصبح غزله ، في بعض جوانبه ضرباً من  
صياح الغريزة النوعية الذي ينبو عن الذوق .

وكل هذه العناصر السالفة أثرت في طبيعة بشار وجعلتها شديدة التعقيد ،  
ويجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهي زعامة تُردُّ إلى أنه استطاع  
أن ينهج لهم في قوة السبيل التي ترسّمها الشعراء من حوله ومن بعده ، وهي سبيل  
تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربي من جهة ، ومن جهة ثانية تفسح  
لتجديد الشاعر العباسي بحكم رقيه العقلي ومعيشتة الحضارية . وبذلك ازدهر الماضي  
في الحاضر ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذي جعل الشعر العربي عنده يحتفظ

(٢) أغاني ٢٤٢/٦ وما بعدها .

(١) أغاني ٢٤٨/٣ .

بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه - مهما لانت ورقّت - مطبوعة بطوايح النصاعة والإيجاز والتركيز ، تلك الطوايح التي تشبع فيه الدقة والوضوح والجمال ، كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسبها الخيالية . وحقاً حدث فيه تجديد واسع ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلقه بحسب متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من كنوز الآداب والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين ما يصوغه وبين بيئته المتحضرة . وقد أتاح ذلك لأغراض الشعر عند بشار أن تتطور تطوراً قليلاً أو كثيراً ، بحيث يظل الاتصال قائماً بين الشعر العباسي والشعر القديم .

وعجيبٌ حقاً أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الخفيف وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداة من أدوات ازدهاره وبرهانا بئسناً على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التي يظل فيها الماضي الفني ماثلاً ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات في الزمان والمكان ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألدوا في العروبة والدين وما من شك في أن بشاراً كان ملحداً زنديقاً يكفر بالعرب ، ومع ذلك اضطرّ اضطراراً حين عاش شعرهم أن يتمثل أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم مخترقاً في تمثله حجب الزمان والمكان مطاطاً من غروره . وليس معنى ذلك أنه انفصل عن عصره ، فقد مضى يزاوج بين الماضي والحاضر ، يتلقّى الماضي ويحياه ، وأيضاً يتلقّى الحاضر ويحياه ، وبذلك وصل بين الحاضر والماضي بريقه العقل وحياته الحضارية وصلا خصباً

وقد يكون من الغلو أن نزعّم أن ذلك كان من عمل بشار وحده ، فقد شركه فيه جميع شعراء عصره إلا نفرأ قليلاً ، إذ مشكّل الشعر القديم أمامهم كالألم الغذائية ، فكل شاعر يتغذى منه ما يقوم به عمله ، حتى إذا مرّن عليه أخذ يوازن بين الغذاء القديم والغذاء الحديث : غذاء الثقافة والحضارة ، وهي موازنة غدت كأنها طبيعة العصر ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوس الشعراء أن شاعراً لم يكن يحطّى بتقدير بين أقرانه إلا إذا حقق لنفسه حظاً من هذه الموازنة ، وبما لا شك فيه أن حظ بشار منها كان موفوراً ، فإنه احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطور في أغراضه ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثرة وسعة وعمقاً .

والمديح أهم غرض وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سننه الموروثة ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورسائنها ومثانتها ، أو من حيث المنهج الذى سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما فى الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدتها الطبيعية وما يجرى فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل نادرين فى أطراف قصيدهم بعض الحكم . وكل ذلك احتذاه بشار فى كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى نفس المعانى والأخيلة ، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكرراً فيها من الغريب الوحشى على نحو ما هو معروف فى أرجوزته<sup>(١)</sup> : « يا طلل الحى بذات الصمّد » . ونراه يصرح فى بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشية حتى يرضى ممدوحه سلم بن قتيبة الذى كان يتباصر بالغريب<sup>(٢)</sup> .

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التى ساقها فى وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشيم الرفيعة التى طالما خلعها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحهم من الكرم والمروءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم ، وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل فى الجاهلية ، فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية ، ونرى بشاراً يقتدى بهم وخاصة فى مديحه للمهدى<sup>(٣)</sup> ، وكأنه حتى فى هذا الجانب لا يزال موصولاً بالتراث الفنى القديم . وكان طبيعياً لذلك أن يستمد جمهور معانيه فى المديح من القدماء ، وهذا نفسه يلاحظ على مقدماته الطلالية والغزلية ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام النقاد كى يبحثوا فى سرقاته منهم ، كما فتحها أمام الشعراء لكى يحتذوا على صنيعه . على أنه ينبغى أن نعود فنقرر أنه كان يحاول النفوذ من خلال هذا الصنيع إلى معان وصور جديدة يستلهم فيها حسه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضارى المترف حتى حين يعتمد على المحاكاة المسرفة للقدماء على نحو ما يلقانا فى أرجوزته : « يا طلل الحى بذات الصمّد » . وحري بنا أن نقف

(٢) الأغاني ٣/١٩٠ وما بعدها .  
 (٣) انظر الديوان ٣/٣٢١ ، ٢/٢٧٧ وما بعدها ، ٢/٢٩٧ .

(١) الديوان ٢/٢١٩ والأغاني ٣/١٧٤  
 وراجع فى أراجيزه أخرى الديوان ١/١٣٤ ،  
 ١٤٠/١ .

قليلاً عند قصيدته البائية التي مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة وفي رواية أنه مدح بها مروان بن محمد ، وهي تلك التي يستهلها بقوله :

جفا ودهً فازوراً أو ملّ صاحبه وأزرى به أن لا يزال يُعاتبه

فإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سُرى الليل على بعيره وسط الفيافي المقفرة ، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأتته وما مرَّ بها وبه من أيام الربيع المنعشة ثم ما سقط من أيام الصيف اللافحة التي أوقدت العطش في صدور الأتُن وحمارها ، فإذا هي تطلب الماء تريد أن تشفى غلتها منه ، وما إن تريد أن تقع عليه حتى يرسل الصائد عليها سهامه . ويمضى إلى مديح يزيد فيوغل في فخر شديد بقيس قبيلته التي كان لها ولاؤه ، ويطنل في وصف بلائها في حروب مروان بن محمد وقسمع الثائرين عليه . وبشار في كل ذلك ينزع منزع القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائرتهم فيفخرون بما أثر العشرة ووقائعها الحربية ، وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ، ولكن لا تظن أنه طابق النموذج القديم تمام المطابقة ، فقد أدخل في نسيج قصيدته خيوطاً جديدة ، وتلقانا هذه الخيوط واضحة في نسيبه إذ تحدث فيه عن الصداقة والصديق ، وكأنه يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه « الأدب الكبير » كما يستلهم الكلاميين في قوة البرهان والحجة ، فإذا هو يقول (١) :

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتباً      صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه  
فِعشٌ واحداً أوِصلُ أخاك فإنه      مقارِفٌ ذنُبٍ مرَّةً ومجانِبُهُ (٢)  
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَدَى      ظمئتْ وأىُّ الناسِ تَصَفُو مشاربه

ونمضى معه في وصف مشاهد الصحراء وصفاً حياً ، حتى إذا انتهى منه فخر بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم محقاً ، يقول :

إذا الملكُ الجَبَّارُ صعرَّ خَدَّهُ      مشينا إليه بالسيوفِ نعاتبه (٣)

(٢) مقارِفٌ : مرتكب .  
(٣) صعرَّ خده : تكبر وعتا وبنى .

(١) أغاني ١٩٧/٣ وانظر القصيدة في الديوان  
٣٠٥/١ .

وراقبنا في ظاهر لا نراقبه<sup>(١)</sup>      وكنا إذا دب العدو لمُخطننا  
وأبيض تستسقى الدماء مضاربه<sup>(٢)</sup>      ركبنا له جهراً بكل مثقف  
وبالشموك والخطى حمر تَعَالِبُه<sup>(٣)</sup>      وجيش كجُنح الليل يزحف بالحصى  
تطالعنا والظل لم يَجْرِ ذائبه      غدونا له والشمس في خدر أمها  
وتدرك من نجى الفرار مثالبه<sup>(٤)</sup>      بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه  
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه<sup>(٥)</sup>      كأن مشار النقع فوق رعوسنا  
بنو الملوك خفاق علينا سبائبه<sup>(٦)</sup>      بعثنا لهم موت الفجأة إننا

والفخر بالبلاء في الحروب قديم ، غير أن جديداً واضحاً يداخل معاني هذه الأبيات ، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسي الذي أدّى به إلى المبالغة ومجاورة القصد الذي يُعَدُّ من مميزات الطبع العربي الخالص ، كما يُرَدُّ إلى محاولة الإبداع في التصوير ، ويُروى أن الأصمعي وقف متعجباً إزاء البيت السابع وأنه قال : « وُلد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البُصراء أن يأتوا بمثله »<sup>(٧)</sup> . وكان يعتمد في ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالاً فاق فيه المبصرين من حوله ، مستعيناً بحس دقيق . وكان مما دفعه إلى ذلك شعوره بفقده لبصره ، وكأنه كان يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف الصور الحسية بل أن يبدع في تأليفها . على أن من يعنى النظر في تصاويره يلاحظ عجزه عن تمثيل الدقائق التي لا تُرَى إلا بحاسة البصر .

ومهما يكن فقد استطاع بشار في مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة ، وهي تبدو قليلة في قصائده الأموية ، وكلما أوغلنا معه في العصر العباسي أحسنا بنموها ، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن

(١) دب : مشى في استخفاء .

(٢) المثقف : الريح المقوم . الأبيض :

السيف .

(٣) يزحف : يهجم . بالحصى أى أنه

كالحصى كثرة . الشوك هنا : السلاح . الخطى :

(٤) الرمح . مثالبه : أطرانه .

(٥) المثقف : غبار الحرب .

(٦) سبائبه : أعلامه وراياته .

(٧) أغاني ١٤٢/٣ .

المقدمات الطلية مكتفياً بالغزل . ولما أمره المهدي بالكفّ عن الغزل الماجن أخذ يردد - كما أسلفنا - في مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولاً على مشيئته . وكان قد وصف السفينة في إحدى<sup>(١)</sup> مدائحه لابن هبيرة ، ونراه يعود إلى ذلك مراراً في بعض مدائحه<sup>(٢)</sup> للمهدي ، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطلية القديمة مقدمة جديدة من بيئته . وقد عكف على معاني المديح القديمة يولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله في خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر<sup>(٣)</sup> :

إذا جئته للحمْدِ أشرقَ وجهُهُ وإليك وأعطاك الكرامةَ بالحمْدِ  
مفيدٌ ومتلافٌ سبيلُ تراثه إذا ما غدا أوراخَ كالجزرِ والمدِّ<sup>(٤)</sup>  
وقوله في عمر بن العلاء قائد المهدي الذي قضى على ثورة الحرّمية بجرجان<sup>(٥)</sup>

فتى لا ينام على دمنّةٍ ولا يشرب الماء إلا بدمٍ  
يلدُّ العطاء وسفك الدماء ويغدو على نعيمٍ أو نقمٍ  
ويقرن دائماً في مديحه للقواد والولاة الشجاعة إلى الكرم الفياض ، ويستنبط منهما دقائق كثيرة مستلهماً لطائف عقله ودقائق تصويره ، من مثل قوله في مديح عقبة بن سلم والى البصرة<sup>(٦)</sup> :

إنما لذّة الجواد بنِ سلمٍ في عطاءٍ ومركبٍ للقاء  
كخروج السماء سيبٌ يديه لقريبٍ ونازح الدار نائي<sup>(٧)</sup>  
ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلدُّ طعم العطاء  
يسقط الطيرُ حيث يَنثُرُ الحَبُّ بٌ وتُغشى منازلُ الكرماء  
لا يهاب الوغى ولا يعبدُ الما لَ ولكن يهينه للشناه

(٥) المختار من شعر يشار للخالد بن ص ٧٧ .

(٦) الديوان ١١١/١ والأغاني ١٨٩/٣ .

(٧) خروج السماء : الغيث . السيب : العطاء .

(١) الديوان ١٤٧/١ .

(٢) الديوان ٢٨٣/٢ ، ٢٨٠/٣ .

(٣) أغاني ١٩٢/٣ والديوان ١٢٥/٣ .

(٤) التراث هنا : المال مطلقاً .

أَرْبِحِيْ لَهُ يَدٌ تُمْطِرُ النَّيِّ لَ وَأُخْرَى سُمٌّ عَلَى الْأَعْدَاءِ (١)

وواضح أنه يجعل لذته في الكرم والشجاعة، ويصور كرمه واسترساله فيه بالغيث الذي لا مفر من سقوطه على القريبين والنائين . ويجرد عطاءه عن الغايات ، فهو لا يعطي خوفاً من هجاء ولا رجاء في مديح ، وإنما يعطي لأنه يجد لذة في العطاء من حيث هو ويجد فيه استرواحا . ويتمثل عكوف السائلين على بابه بسقوط الطير على الحب . ويصف شجاعته ويقول إنه لا يهاب الموت، وإنه لا يزال يبذل ماله كأنه يريد أن يهبه لمن يشن على صنيعه . ويصوره مرسلًا نداءه على السائلين وصواعق الموت على الأعداء الباغين . وتتضح في هذه القطعة خصائصه ، فهو يحاول أن يستقصى المعاني عارضاً لها في وجوه شتى تصور دقة فكره وطرافة أخيلته ، مستعيناً بالمقابلة والطباق وبيعض الحكم كما في البيت الرابع . وقد أفرد للحكم قصيدة خاصة (٢) .

ولم تُؤثّر لبشار مرث كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمساً في اللهو وأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهز نفسه هزاً حين فقد ابنه محمداً ، وفيه يقول (٣) :

أَصِيبَ بُنْيٍ حِينَ أَوْرَقَ عُصْنُهُ      وَأَلَى عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ  
وكان كَرِيحَانَ الْعَرُوسِ تَخَالُهُ      ذَوَى بَعْدَ إِشْرَاقِ الْغُصُونِ وَطِيبِ  
وما نحن إلا كالخليط الذي مضى      فرائسُ دهرٍ مخطيءٍ ومصيبِ  
نؤملُ عيشاً في حياةٍ ذميمة      أَضْرَّتْ بِأَبْدَانِ لَنَا وَقُلُوبِ

وزاه يحزن حزناً عميقاً على أصدقائه من الزنادقة الذين فتك بهم المهدي فتكاً ذريعاً ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذي ينتظره ، وقد مرت في الفصل السابق قطعة يرثى بها صديقاً منهم ، وكأنه يرثيهم جميعاً وقد ندبه بها أحرَّ نذب وأشجاه . وروى له أبو الفرج ميمية رثى بها خمسة من أصدقائه تقطر أسى وحزنا، ولانشك

(٢) الديوان ١/٢٥٢ .

(٣) الديوان ١/٢٥٤ والأغاني ٣/١٦١ .

(١) أربحي : كريم يهتز للندى . النيل :  
العطاء .

في أنهم جميعاً قتلوا على الزندقة ، إذ نراه فيها جزعاً أشد الجزع ، مُلتاعاً أشدّ الالتياح على شاكلة قوله (١) :

كيف يصفونى النعيمُ وحيداً والأخلاءُ في المقابرِ هامُ (٢)  
نَفِسَتْهُمْ عَلَى أُمَّ المنايا فَأَنَا مَتَّهُمْ بعنفٍ فناموا  
لا يَغِيضُ انسجامُ عيني عليهم إنما غاية الحزين السَّجامُ (٣)

والرثاء عنده - على كل حال فن طارئ ، وكانت وراءه فنون أخرى عاش لها حياته ، ونقصد فنون الفخر والهجاء والغزل والحجون . وقد بدأ حياته مفاخرًا هاجياً ، مستلهمًا ما شاع في بيئة البصرة من الفخر والهجاء على لسان جرير والفرزدق ومن كان حوطما من الشعراء . وحاول أن يدخل في معاركهما ، وهو لا يزال غَضُّ العود ، فهجا جريراً مؤملاً أن يردَّ عليه فيطير اسمه في الناس ، ولكن جريراً لم يحفل به لأنه كان لا يزال فتى ناشئاً ، ولم يردّه عدم احتفال جرير به عن الميدان ، فقد أخذ يصول ويجول في هجاء الناس ، ودخل في الخصومات القبلية بين عشيرته من بنى عُقَيْل القيسية وغيرها من العشائر . ولما تفاقم شره شكاه الناس إلى أبيه ، ولكنه ازداد شراً وإيذاءً ، كما مر بنا في صدر ترجمته .

وعوامل مختلفة جعلت بشاراً يسرف في هجائه وفخره ، من ذلك أنه كان يريد أن يشتهر في هذين الفنين شهرة جرير والفرزدق ، ومن ذلك أن نفسه كانت تنطوى كما أسلفنا على غير قليل من المراوة بسبب فقد لبعصره ، وهى مرارة زادها اضطراباً في نفسه أنه كان مولى ، والمولى كانوا متخلفين في المجتمع الأموى ، وكان فقيراً بائساً ، فاندلع بنفسه بفخره وهجائه عن قروحه النفسية ولكن بمن يفخر؟ أما في العصر الأموى فقد مضى يفخر بعشيرته وأصولها من قيس ، وكان مما أشعل هذا الفخر في نفسه أن الخليفة حينئذ - وهو مروان بن محمد - كان قيسى الهوى ، وأن والى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى كان يتعصب لأصوله من قيس تعصباً شديداً ، وكان بشار يعيش في كنفه ، فضى آنذاك يفتخر بقبس ومضر

(٣) يفيض : يحف . السجام : سيلان  
الدمع .

(١) أغاني ٣/٢٣٦ .  
(٢) هام هنا : أموات .

افتخاراً يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا في قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله<sup>(١)</sup> :

إذا ما غَضَبْنَا غَضَبَةً مُضْرِيَةً هتكننا حجابَ الشَّمْسِ أو تُمَطِّرَ الدَّمَ  
إذا ما أَعْرَنَّا سَيِّدًا من قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا  
وإذا مضينا معه إلى العصر العباسي ، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية ، فإذا هو يفاخر العرب بماضى قومه التليد ، وإذا هو يتحول شعوبياً مارقاً يتغنى بأجداد قومه الحضارية كافرأ بالعرب والعروبة ، وتصور هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته<sup>(٢)</sup> :

هل من رسولٍ مخبرٍ عنى جميعَ العربِ

وهي صياح وضجيج بتصوير أبهة الملك الفارسي وأيضاً الملك الرومي ، إذ زعم أن الروم أخواله ، هانفاً هتافاً مقدعاً بالعرب ومعيشتهم البدوية الحشنة .  
واصطدم بشار بكثير من الشعراء ، وجرَّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيراً وخاصة من حماد عجرد الذي سلقه بلسانه ، وأصلاه بناره ، مما جعل معارك هجائية عنيفة تنشب بين الواعلين على نحو ما مر بنا في الفصل السابق وهي معارك كانت تُستخدَمُ فيها غالباً مقطوعات قصيرة ، تشبه أدقَّ الشبه سهاماً مسمومة ، وقد اختلفت أنواع السموم التي كانا يغمسانها فيها ، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير ، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات ، مع محاولة كل منهما تلطيف صاحبه بتهمة الزندقة . وما نسوقه من ذلك قول بشار في أم حماد<sup>(٣)</sup>  
إذا سُئِلْتُ لم تكن كزَّةً ولكنْ تذوب ولا تجمُدُ  
وراء هذا البيت في القصيدة أبيات يصرح فيها بفجورها وغوايتها تصريحاً تتفَرَّزُ منه النفس الكريمة .

واشتهر بشار بالتفنن في الغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نُظِمَ في هذا الفن قديماً من التشبيب والنسيب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادى عند عمر بن

(٣) الديوان ١٢٣/٣ .

(١) أغاني ١٦٢/٣ .

(٢) الديوان ٣٧٧/١ وانظر ٢٢٩/٣ .

أبى ربيعة وأضرابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العذرى عند جميل وأمثلة من النجديين والنازليين ببوادي الحجاز . وقد مضى فى ذلك كله يستلهم الرقى العقلى الحديث والحضارة المادية التى تنفّس فيها ، وزراه أحياناً يقترّب اقتراباً شديداً من القدماء ، حتى ليتحدث عن الأطلال والرسوم فى مثل قوله (١) :

لَعْبَدَةٌ دَارٌ مَا تَكَلَّمْنَا الدَّارُ تَلُوْحُ مَغَانِيهَا كَمَا لَاحَ أُسْطَارُ (٢)  
 أُسَائِلُ أَحْجَارًا وَنُؤْيَا مُهْدَمًا وَكَيْفَ يَجِيبُ الْقَوْلَ نُؤْيٌ وَأَحْجَارُ (٣)  
 وَمَا كَلَّمْتَنِي دَارَهَا إِذْ سَأَلْتُهَا وَفِي كَبْدِي كَالنَّفْطِ تُبِتُّ بِهِ النَّارُ  
 وَعِنْدَ مَغَانِي دَارِهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ لِمَكْتَسِبِ بَادِي الصَّبَابَةِ أَخْبَارُ  
 وَيَقْتَرِبُ أَيْضًا حِينَ يَسْتَعْلِقُ عُنَاصِرَ النَّسِيبِ وَالغَزَلَ الْقَدِيمَ وَمَا يَجْرَى فِيهِ مِنْ  
 وَصْفِ لَوْعَةِ الْحُبِّ وَالسَّهَادِ الطَّوِيلِ ، وَمَا صَوَّرَ عَشَاقَ الْعَرَبِ مِنْ إِذْعَانِهِمْ لِمَعشُوقَاتِهِمْ  
 وَمَا يَسْكُبْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ سِحْرِ وَفْتَنَةٍ ، وَمَا يَبْعَثُ نَسِيمَ الصَّبَا الْجُلُومَ الْمَارِ بِدِيَارِهِمْ فِي  
 أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَرْدٍ وَأَمْنٍ وَغَبْطَةٍ وَمَا يَنْصَبُونَ حَوْلَهُمْ مِنْ شَبَاكَ التَّضَرُّعِ وَالتَّدْلِيلِ وَالتَّاسِطِ ،  
 حَتَّى لِيُخَيِّلُونَ لِإِيهِنِ أَنْهَمُ قَتَلِي حَبْهِنِ وَسَهَامِ عِيُونِهِنِ ، يَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَعشُوقَتِهِ  
 عَيْبَةً (٤) :

أَبَيْتُ أَرَمَدًا مَا لَمْ أَكْتَحِلْ بِكُمْ  
 رَقَّتْ لَكُمْ كَبْدِي حَتَّى لَوْ أَنْكَمْتُ  
 كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا ذَكَرَاكُمْ عَرَضْتُ  
 مَا هَبَّتْ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ أَرْضِكُمْ  
 يَرِقُّ قَلْبِي وَتَزْدَادِينِ لِي غِلْظًا  
 تَحْرَجِي بِالْهَوَى إِنْ كُنْتِ مَوْمِنَةً  
 وَفِي اكْتِحَالِي بِكُمْ شَافٍ مِنَ الرَّمَدِ  
 تَهْوُونَ أَنْ لَا أُرِيدَ الْعَيْشَ لَمْ أُرِدِ  
 مِنْ سِحْرِ هَارُوتَ أَوْ مَارُوتَ فِي عَقْدِ (٥)  
 إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدًا عَلَى كَبْدِي  
 مَا ذَاكَ فِيمَا أُرَجِّئُ مِنْكَ بِالسَّدَدِ (٦)  
 بِاللَّهِ أَنْ تَقْتُلِي نَفْسًا بِلَا قَوْدِ (٧)

(١) أغاني ٢٤٦/٦ .  
 (٢) مغانيها : منازلها المهجورة . أسطار : جمع سطر ، يشبه المغاني بسطور الكتابة .  
 (٣) النؤى : حفرة يحفرونها حول الخيمة على شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار .  
 (٤) انظر الديوان ٣١٥/٢ والمختار من شعر  
 بشارص ٨٢ .  
 (٥) العقدة : ما ينقبه الساحر بزمزيمته لفرض السحر .  
 (٦) السدد : السداد والصواب .  
 (٧) القود : القصاص .

وقد رققت الحضارة حسه وفتحت له في الغزل أبواباً من المعاني والصور التي  
تمّ عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادي وشعور رقيق حاد ، وما يمثل ذلك  
عنده من بعض الوجوه قوله (١) :

يا ليتي تزدد نُكْرًا      من حُبِّ مَنْ أَحْبَبْتُ بِكْرًا  
حَوْرَاءُ إِنْ نَظَرْتُ إِلَيْكَ      لَمْ سَقَتِكَ بِالْعَيْنِينَ خَمْرًا  
وَكَأَنَّ رَجَعَ حَدِيثُهَا      قَطَعَ الرِيَاضَ كُسِينَ زَهْرًا  
وَكَأَنَّ تَحْتَ لِسَانِهَا      هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سِحْرًا  
وتخال ما جمعتُ عليَّ      ثيابَها ذهباً وعطراً  
وَكَأَنَّهَا بَرْدُ الشَّرَا      بَ صَفَاً وَوَأْفَقَ مِنْكَ فِطْرًا  
جَنِيَّةٌ      إِنْسِيَّةٌ      أَوْ بَيْنَ ذَلِكَ أَجَلُ أَمْرًا

وواضح في هذه القطعة أثر فقدته لبصره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم  
والسمع واللمس والحس ، فهو يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض  
ويصف حديثها وما تذيب فيه من سحر ، ويصور جسدها ذهباً وعطراً ، أما ما ينعم  
به من جمالها فشراب بارد سلسيل صادف صائماً يتحرق عطشا . وقلما ارتفع في  
غزله عن الحس والسمع والأذن ، ونوه بذلك كثيراً في شعره ، محاولاً أن يعتذر عن  
فقدته لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر ، ومن ثمّ مضى يردد في أشعاره أن السمع  
يحل محل العين في تقدير الجمال والإحساس التام به ، من مثل قوله (٢) :

يا قومُ أذني لبعض الحَيِّ عَاشِقَةٌ      والأذُنُ تَعشِقُ قَبْلَ العَيْنِ أحياناً  
قالوا بمن لا ترى تَهْدِي؟ فقلت لهم      الأذُنُ كالعَيْنِ تُوفِي القلبَ ما كانا

وكان لذلك أثر عميق في غزله إذ طبعه بطوابع الحس ، وليس ذلك فحسب ،  
فقد أماله بشار - كما أسلفنا - نحو الإفصاح في وضوح عن الغريزة النوعية لإفصاحاً  
بث فيه كل ما استطاع من فحش ولثم وفسق ، لا يتحرج ولا يرعى ديناً ولا خلقاً ،

(٢) أغاني ٣/٢٣٨ .

(١) أغاني ٣/١٥٥ .

حتى ليصور جانبه الحيواني الجشع ، عامداً إلى التفصيل أحياناً<sup>(١)</sup> ، وأحياناً إلى الإجمال بمثل قوله<sup>(٢)</sup> :

فَبِتْنَا مَعاً لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَى الصَّبْحِ دُونِ حَاجِبٍ وَسْتَوْرٍ  
وقد مضى يحضّ حَضّاً صريحاً على الإثم ويغري الناس بفتنة الجسد، وكأنما لم يعد بلجمال المرأة عنده من معنى نفسى سام ، فقد رُدَّ جمالها كله إلى جسدها وأصبحت في رأيه أداة للغريزة الجنسية، أداة طبيعة تنال مهما تأبّت واستعصت ، إذ لا تلبث أن ترضى وأن تُبْلِغَ الرجل منها ما يريد ، يقول<sup>(٣)</sup> :

لَا يُؤَيِّسُنْكَ مِنْ مَخْبَأَةٍ قَوْلٌ تَغْلُظُهُ وَإِنْ جَرَحَا  
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مَيَاسِرَةٍ وَالصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

ويحاول أن يبرر المعصية ، فيحلّ القبلة ، ويغري باجتناء زهرات الجسد واقتطاف ثمراته ، بل خطيئاته ، دون التفات إلى الناس وإلى عرفهم وألستهم ، فالحياة فرص واستمتاع جسدى ، بل هجوم على هذا الاستمتاع وما يُطَوِّى فيه من لذة وإثم ، يقول<sup>(٤)</sup> :

قَالُوا حَرَامٌ تَلَاقِينَا فَقُلْتُ لَهُمْ مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ  
مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكِ اللَّهْجِ

ومن أجل ذلك كله ضاق به الوعاظ وأهل الصلاح وهتفوا به في وعظهم وكلامهم ، ولم يَرْعَوْا فرفعوا أمره إلى السلطان ، وتدخل المهدي ونهاه فانتهى ، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن شاع غزله الفاجر على كل لسان ، وكان مما هياً لذلك تعلق الجوارى والقيان بهذا الغزل وتغنيهن فيه ، وكان جمهورهن مثل بشار لا يعصمن خلق ولا عرف ولا دين ، وكان قد انغمس بعض الناس في اللذات . وقد يكون من المبالغة أن نجعل بشاراً وحده المسئول عن شيوع هذا الغزل العاهر ، فقد كان يشركه فيه الحجان من حوله في البصرة والكوفة وبغداد ، ولكنه على كل حال يعد

(٣) أغاني ٢٠٩/٣ .

(٤) أغاني ٢٠٠/٣ .

(١) أغاني ١٨٣/٣ وما بعدها .

(٢) المختار من شعر بشار ص ٢٤١ .

في طليعة من روجوا له بحكم خصب ملكاته الشعرية . وقد مضى يكثر من وصف مجالس اللهو والغناء ، وله مقطوعات بديعة يصور فيها غناء بعض القيان ومدى ما كنَّ يخلبن به الألباب من غنائهن وضربهن على آلات الطرب<sup>(١)</sup> ، وقد تعنى طويلا بالخمير وكنوسها ودنانها ونُدْمانها وسُقَاتها من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

رَبُّ كَأْسٍ كَالسَّمْسِبِيلِ تَعَلَّدُ	مَتْ بِهَا وَالْعَيُونَ عَنِ نِيَامٍ
حُبَسَتْ لِلشُّرَاةِ فِي بَيْتِ رَأْسٍ	عُتِّقَتْ عَانِسًا عَلَيْهَا الْخِيَامُ <sup>(٣)</sup>
نَفَحَتْ نَفْحَةً فَهَزَّتْ نَدِيمِي	بِنَسِيمٍ وَأَنْشَقَّ عَنْهَا الزُّكَامُ
وَكَاَنَّ الْمَعْلُولَ مِنْهَا إِذَا رَا	حَ شَجَّ فِي لِسَانِهِ يِرْسَامُ <sup>(٤)</sup>
صَدَمْتَهُ الشَّمُولُ حَتَّى بَعِينِي	هَ انْكَسَارٌ وَفِي الْمَفَاصِلِ خَامُ <sup>(٥)</sup>
وَهُوَ بَاقِي الْأَطْرَافِ حَيْثُ بِهِ الْكَأُ	سَ وَمَاتَتْ أَوْصَالُهُ وَالْكَلامُ <sup>(٦)</sup>

وهو يصور صفاءها وقدمها وشذاها الذي يشق الزكام ، وتأثيرها الجسدى في الشارب وما تصيبه به من هذيان ومن فتور في العيون وارتخاء في المفاصل ، ثم ما تنزل به من هدوء وسكون وصمت حتى لكأتما ماتت أوصاله ومات الكلام . وهو يتصل في وصفه للخمر بترائها القديم عند الأعشى وأضرابه وما أضيف إليه عند الوليد بن يزيد ونظرائه ، في الوقت نفسه يُعَدُّ مقدمة للماجنين من حوله ومن بعده لكي يزيدوا في الطنبور ما شاءوا من أنغام وألحان .

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بشارا تمسك بالتراث الفنى وأصوله التقليدية وكيف مضى ينميه ويلائم بينه وبين حياته العقلية الخصبية وما عاش فيه من حضارة مادية حفَّ بها المحجون . وقد حاول ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، أن يجدد في شكل القصيدة ، فنظم في الرباعيات وفي المزدوج والمسمطات ، غير أنه ظل محتفظاً للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة ، وقد يرقّ ويلين ، ولكن دون

- (١) أغاني ١٦٥/٣ .  
 (٢) أغاني ٢٣٥/٣ .  
 (٣) بيت رأس : من قرى فلسطين وتشتهر بالكروم والخمر .  
 (٤) البرسام : مرض يصحبه هذيان ، وهو يريد الهذيان نفسه .  
 (٥) الشمول : الخمر . خام هنا : ارتخاء ، وأصله طاقات الزرع النفضة .  
 (٦) حيث . حيث .

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهاً دقيقاً وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

## ٢

أبو نواس<sup>(١)</sup>

إذا مضينا بعد بشار إلى الجليل الذي خلفه رأينا تأثيره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعاً كما تزداد ثورته على العرف والحلق والدين الخفيف ، حتى لتتحول في بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبعي أن ذلك لم يكن عاماً بحيث يشمل الجليل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِي بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المحبون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فلإى دورهم التي حولوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطرحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هاني هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسي الأم والأب أيضاً ، وقد انبهم أمرأيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة اليمينيين ويتكئى بكنية يمنية هي أبو نواس ، وكذلك حين رأوا في أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربي ، وتماذوا فصنعوا له نسبا في بني سعد

منظور ولأبي هان وأبونواس لعبد الرحمن صدق وله أيضاً في خمرياته كتاب ألحان الحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبونواس الحسن بن هاني » للعتاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه في حديث الأربعماء الجزء الثاني وديوانه طبعة أصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

(١) راجع في أبي نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٣ والأغانى (طبع الساسى) ٢/١٨ وتاريخ بغداد ٤٣٦/٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٥٤/٤ وابن خلكان في الحسن بن ابن هاني ونزعة الألبا ص ٩٩ وشذرات الذهب ٣٤٥/١ ومراة الجنان ٤٤٩/١ والموشح للمرزباني ص ٢٦٣ وأخبار أبي نواس لابن

العشيرة<sup>(١)</sup> . والصحيح أنه كان مولى فارسياً من موالى الجراح بن عبد الله الحكيمى<sup>(٢)</sup> والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة<sup>(٣)</sup> ، وقد نزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد ( ١٢٧-١٣١ هـ ) وهناك تعرّف على جارية فارسية تسمى جلدبان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورزقَ منها عدة أولاد<sup>(٤)</sup> ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة<sup>(٥)</sup> ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن وأطرافاً من الشعر ، وتفتّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحاً صبيحاً<sup>(٦)</sup> ، ويقال إن صببية وضيئة الوجه مرت به فآزحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضّضة ، فقال على البديهة من أبيات<sup>(٧)</sup> :

ليس ذاك العَص من عيبٍ لها إنما ذاك سؤالٌ لِلقُبُلِ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد البطارين ، فكان يذهب فى العشى إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر<sup>(٨)</sup> وساقه القدر ليتعرّف على والبة بن الحباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه ، فحشّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فضى معه<sup>(٩)</sup> ، ويقال إن الذى أرغبه

ص ٥ .  
(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصرى ص ٩٤ .  
(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .  
(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبو هفان ص ١٠٩ .  
(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧ وما بعدها وتاريخ : - ١٣ / ٨٧ . وأبو هفان ص ١٠٩ .

(١) انظر أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٢ .  
(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجى) ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبو هفان ص ١٠٩ ، ١٢١ .  
(٣) وقيل : بل كان كاتباً من كتّاب الجراح وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .  
(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤ وما بعدها .  
(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله<sup>(١)</sup>:

ولها ولا ذنبٌ لها حُبُّ كأطرافِ الرياحِ  
في القلبِ يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحي

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه - فما بعد - في المحون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه في البصرة<sup>(٢)</sup> ، فارتحل معه ، وأخذ يَعْبُثُ من الخمر كى ينسى أمه ، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد وقع في حبالل شيطان كبير ، غمسه في كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مَجَّان الكوفة من أمثال مطيع بن إلياس وحمامد عَجْرَد ، وكأنا كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره . وثاب قليلا إلى رشده ، فخرج إلى بادية بنى أسد ، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة<sup>(٣)</sup> ، وعاد ، ولكنه ولَّى وجهه نحو موطنه ، وأخذ يفد على المربد بالواحة للقاء الأعراب الفصحاء<sup>(٤)</sup> ، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذى حشَّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المثات من أراجيزه ، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعاً ، وفيه يقول في بعض مراثيه له<sup>(٥)</sup>:

أودى جماعُ العلمِ إذ أودى خَلْفٌ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفَ  
كنا متى ما نَدُنُّ منه نَعْتَرِفُ روايةً لا تُجْتَنى من الصُّحُفِ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: « كان عالماً فقيهاً عارفاً بالأحكام والفتنبا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه »<sup>(٦)</sup> .  
وطلب أيضاً علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين ، ومرّ بنا في الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم في أشعاره ، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلماً ثم انتقل إلى نظم الشعر<sup>(٧)</sup> . وقد وصله هذا العلم

(٥) الديوان ص ١٣٣ .

(٦) ابن المعتز ص ٢٠١ .

(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨ .

(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) ابن منظور ص ١٢ .

(٤) الحيوان ٦/٢٣٩ .

بالثقافات التي كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذها من الثقافات الهندية ، ولا شك في أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقاً فقد كان فارسي الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها في أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضاً لا بد أنه نظر في الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم ثقافته بعلم الكلام ، إذ كان المتكلم لا يتمكن في هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة » (١) . وفي خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم (٢) . وتفرغ للنوادر والملح وحفظ منها شيئاً كثيراً (٣) ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفاً (٤) ، مما أعدّه لتكثير مطايباته ومداعباته ، وليكون سميحاً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكي ، فيقول: (٥)

كم من حديثٍ معجبٍ لي عندك      لو قد نبذتُ به إليك لسرّاً  
إني أنا الرجلُ الحكيمُ بطبعه      ويزيد في علمي حكاية من حكى  
أتبع الظرفاء أكتب عنهم      كما أحدثت من أحب فيضحكا  
وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التي عاصرته ، فقد كانت تزدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حبا ، وهو لا يزال في البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء ؛ جنان جارية الثقفين ، وعقد أبو الفرج فصلاً في أغانيه (٦) لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسببها وشمها ، وهو يزداد بها شغفاً ، حتى ليقول (٧) :

أتاني عنك سببٌ لي فسببى      أليس جرى بفيك اسمي فحسبى  
وقولي ما بدالك أن تقولي      فما ذا كله إلا لحببي  
وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبت بغداد فيمن جذبت من شعراء

- (١) الحيوان ١٣٤/٢ .  
(٢) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٣ وأبا هفان ص ٢٥ والديارات للشابتي (طبع بغداد) ص ١٣١ .  
(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .  
(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .  
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .  
(٦) أغاني (طبع السامي) ٢/١٨ وما بعدها .  
(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكيًا عليه ولا آسفًا ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق في علاقته بجنان وعلاقته بالرفاق حتى كان يشعر كأنه سلب الحرية ، وفي ذلك يقول (١) .

أيا من كنت بالبصر  
 ومن كانوا موالئ  
 ومن قد كنت أراعاه  
 شربنا ماء بغداد  
 فلا ترعوا لنا عهدا  
 ة أصنى لهم الودا  
 ومن كنت لهم عبدا  
 وإن ملّ وإن صدّا  
 فأنساناكم جدا  
 فما نرعى لكم عهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فدحه ونال جوائز ، وأخذ ينفقها في مبادله ، غير تارك حانة بالكرخ أو في ضواحي بغداد إلا ارتادها ، ملماً من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذّ له من لثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر (٢) ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُردّ له حريته . وقد غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه (٣) ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر في هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من برّهم ونوالهم الغمّر ، ونراهم يحزن عليهم حزناً عميقاً حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله (٤) :

لم يظلم الدهرُ إذ توالّتْ  
 كانوا يجيرون مَنْ يُعادي  
 فيهم مصيباته دراكا  
 منه فعاداهم لذاكا

ويولّي وجهه نحو الفسقاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسياً مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضنى عليه من

(٣) ابن منظور ص ١٥ .

(٤) أبو هفان ص ١٢١ .

(١) الديوان ص ١٦٦ .

(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشح ص ٢٨٧ .

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول (١) :

أنت الخصبُ وهذه مِصرُ فتدققا فكلكما بحرُ  
النيلُ يُنعش ماؤه مصرًا ونذاك ينعش أهله الغمرُ

وسرعان ما أخذ يحنُ حنينًا شديدًا إلى بغداد حيث المحزون قائم على قدم وساق ،  
وصورَ هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله (٢) :

كني حزنًا أني بفسطاط نازحُ ولى نحو أكناف العراق حنينُ

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفي وخلفه الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديمًا له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغل ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتباً بعبو به تُقرأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني' ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاستقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تَسقني سرًا إذا أمكن الجهرُ  
وَبُحْ باسم من تهوى ودغني من الكنى فلا خَيْرَ في اللذات من دونها يمتُرُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبي نواس في المحزون . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته ، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى في حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشبعاً فيها روحه الفكهة بما يُصور من نسكه وعلامات السجود في جبهته وحمله للمسايح أو السبوح في ذراعه وللمصحف في لَبَّته . (٣) وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردَّ إليه

(٣) الديوان ص ١٠٨ .

(١) الديوان ص ١٠٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .

حريته<sup>(١)</sup> . وكانت قد تقدمت به السن<sup>٥</sup> وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُنَّيب إلى ربه ، وينظم أبياتاً مختلفة في الزهد ، وفي أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غيبته ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلقَى به في السجن ، إذ يقال إنه حجَّ سنة ١٩٠ للهجرة<sup>(٢)</sup> ، وكأنما هي صحوات كان يفتيق فيها ثم يرجع إلى خطاياها . وتوفى الأمين ، ولم يلبث أن توفي من بعده ، وقد اختلف الرواة في تاريخ وفاته<sup>(٣)</sup> ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفي بعد المائتين بقليل وفي ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضاً في سبب وفاته<sup>(٤)</sup> ، فقيل إنه توفي وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض ، ففسس له شربة من سم<sup>٦</sup> قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دس له من ضربه حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت في تكوين طبيعة أبي نواس ، فقد كان فارسياً حاد المزاج وثقف كل الثقافات التي عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق في حضارة عصره المادية وفي آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة إزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المحون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وترددت في أسوأ صور المحون ونقصد غزله الشاذ بالغللمان . ونراه أحياناً يعلن تمرداً وإلحاداً في الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كالإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقاً ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتقد الزندقة إنما كان يعتقد المحون ، ويتعبد للملذذ الحاضرة التي عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقاً عن خمرة ومجونه وإثمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

١٥٦/٢ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء

ص ٧٨٣ .

(٤) أبوهفان ص ٣٤ .

(١) زهر الآداب ١١١/٢ وما بعدها وذيل

زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء

والكتاب للجيشياري ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبوهفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة

أشد الاضطراب تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور<sup>(١)</sup> وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرّ بنا في الفصل السابق وحواره للنظام في فكرة العفو التي قال بها المرجئة<sup>(٢)</sup> .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهماً في مزاجه هو عنصر التندير والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذي جرّه إلى صياح كثير في وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نترّأ إلى المجون حتى أتناول العظام<sup>(٣)</sup> » وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصياح إنما كان ينظمه في أثناء معاقبته للخمر هزلاً وتعابثاً وبجاجة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته في خمرياته ، إذ نراه في ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعاً ومضى يقدم لمدائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار وتعتت رحلته في الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس - على الرغم من مجونياته - يُعَدُّ من أعاجيب عصره في الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة ، وهي ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبي نواس<sup>(٤)</sup> » وأضاف إلى هذا العلم علماً دقيقاً بقوالب الشعر الجاهلي والإسلامي وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو في اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعية دون أن يشتط في التجديد ، واتجاه يحدد فيه تجديداً واسعاً ، يحدد في معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلك في الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلك في الاتجاه الثاني أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه وطوه . أما المديح

(٣) أبو هفان ص ٣٨ .  
(٤) تاريخ بغداد ٤٣٧/٧ .

(١) أبو هفان ص ٣٧ .  
(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله في ذلك قلائد بديعة مثل رائيته في الخصب (١) :

أجارة بَيْتِنَا أَبوكِ غَيورُ وميسورُ ما يُرجى لَدَيْكَ عَمِيرُ  
وميمته في الأمين (٢) :

يا دارُ ما فعلتُ بكِ الأَيَّامُ لم تُبْقِ فيكِ بِشامِشَةً تُسْتامُ (٣)  
ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار في وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه في المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله في الرشيد (٤) :

وأخضتَ أهلَ الشُّركِ حتى إنه لتخافكِ النُّطْفُ التي لم تُخلَقِ  
وقوله أيضاً فيه (٥) :

ملكُ تصوّر في القلوبِ مثاله فكأنه لم يَحُلْ منه مكانُ  
وقوله في الأمين مخاطباً ناقته (٦) :

يا ناقُ لا تَسْأَى أو تبُلغِي ملكا تقبيلُ راحته والرُّكنِ سيَّانِ  
محمدٌ خيرٌ من يَمْشِي على قَدَمٍ مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنسٍ ومن جانِ

ونراه في هذه القصيدة يضي على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى يشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردى فيه من لؤو ومجون ، واستطرد في تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين في الخلافة راداً رداً عنيفاً على بنى عمهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله في بعض ممدوحيه (٧) :

تغطَّيتُ من دهرى بظِلِّ جناحِهِ فعيَّنِي ترى دَهْرِي وليس يراني  
فلو تُسألُ الأَيَّامُ ما اسمي لما دَرَّتْ وأين مكاني ما عرفنَ مكاني  
وجانب آخر في بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

(٥) الديوان ص ٥٩ .  
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .  
(٧) الديوان ص ٩٧ .

(١) الديوان ص ٩٨ .  
(٢) الديوان ص ٦٣ .  
(٣) تستام : ترى  
(٤) الديوان ص ٦٢ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التي تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائح على شاكلة سينيته في الأمين وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

أضحى الإمام محمدٌ للدين نوراً يُقْتَبَسُ  
تبكى البدورُ لضحكهِ والسيفُ يضحك إن عَبَسَ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف ، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشفها وأخفها في النطق وأحلاها في السمع ، وكان يدنو في ذلك حتى يمس شغاف القلوب ، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجري على ألسنة الناس في حياتهم اليومية . ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء ، حتى في المديح ، أو قل في كثير منه ، فإنه كان يبتغي فيه أو على الأقل في بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة .

وأبو نواس في أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكاً بالقوالب القديمة ، وقد سبقه ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، أبو نُخَيْلَةَ وأضرابه من شعراء العصر الأموي مثل الشَّمْرَدَلِ إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف ، ومضى في إثرهم يحاكيهم في التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب . وقرن بهذه المحاكاة الشديدة ضرورياً من التجديد في المعاني والصور على شاكلة قوله في إحدى طردياته<sup>(٢)</sup>:

لما تبدى الصُّبْحُ من حجابهِ      كطلعة الأشمط من جلبابهِ<sup>(٣)</sup>  
وانعدلَ الليلُ إلى مآبهِ      كالحبشيِّ افتترَّ عن أنيابهِ  
هَجْنَا بكلب طالما هَجْنَا بِهِ      يَنْتَسِفُ اليَقْوَدَ من كَأَبهِ<sup>(٤)</sup>  
كَأَنَّ مَتْنِيهِ لَدَى أَنْسِرَابِهِ      مَتْنَا شَجَاعٌ لَجَّ في أنسِيَابِهِ<sup>(٥)</sup>

(٤) ينتسف : ينتزع بقوة .  
(٥) أنسياه : أنسيابه وإسراعه . الشجاع هنا : الأقمى ، متناه : مكتنف صلبه .

(١) ابن المعتز ص ٢١١ .  
(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٤٠/٢ .  
(٣) الأشمط : الذي يتخالط سواد شعره بياض الشيب .

كأَنَّمَا الأظفُورُ فِي قِنَابِهِ      مُوسَى صَنَاعٍ رُدَّ فِي نِصَابِهِ<sup>(١)</sup>  
 كَأَنَّ نَسْرًا مَا تَوَكَّلْنَا بِهِ      يعضو على ما جَرَّ من ثِيَابِهِ<sup>(٢)</sup>  
 تَرَى سَمَومَ الوَحشِ يُحْتَوَى بِهِ      يَرُحْنَ أَسْرَى ظُفْرِهِ وَنَابِهِ<sup>(٣)</sup>

وتمتلى طردياته بمثل هذه الصور ، وهى تُعَدُّ ركنا هاماً فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يحدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوباً جزلاً مصقولاً ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبيكه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظاً بالأسلوب الرصين . وهو فى مراثيه يمتاز بجملة اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعاً مراثيه فى الأمين ، وهى تفيض بالابوة والحزن العميق من مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

طوى الموتُ ما بينى وبين محمدٍ      وليس لما تطوى المنيةُ ناشرُ  
 فلا وصلَ إلا عبرةٌ تستدبها      أحاديثُ نفوسٍ مالها الدهرَ ذاكر  
 وكنت عليه أحذر الموت وحده      فلم يبق لى شئٌ عليه أحاذر  
 لئن عمرتُ دورٌ بمن لا أودهُ      لقد عمرتُ ممن أحبُّ المقابرُ  
 ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع<sup>(٥)</sup> .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة ، فإنه حاول أن يحدد فى الهجاء والغزل والمجون ، وأداجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين<sup>(٦)</sup> وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائص جرير والفرزدق ، فهى تعجّ بالمثالب

(٤) الديوان ص ١٢٩ .

(٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .

(٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه .

صناع : ماهر . نصابه : قرابه وبقبضه .

(٢) توكلنا به : اعتمدنا عليه . يعضو : يحجو .

(٣) سوام الوحش : الوحش المنطلقة فى الفياق .

القبلية التي عرفها في نقائضهما والتي طالما سمعها من أبي عبيدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجري فيه في نفس الدروب التي مهّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التي كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته - إن صح هذا التعبير - من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجري فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفاً ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله<sup>(١)</sup> :

عاج الشقي على رسمٍ يسائلُهُ      وعُجبتُ أسألُ عن خمارة البلدِ<sup>(٢)</sup>  
يبيكى على طلل الماضين من أسدٍ      لا درّ درك قل لى من بنو أسدٍ؟  
كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكرها      وبين بالكِ على نُويٍ ومنتضدِ<sup>(٣)</sup>  
دعْ ذا ، عديمتك ، واشربها معتقّةً      صفراء تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك - كما ذهب بعض المعاصرين<sup>(٤)</sup> - شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان في التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكأها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء ومن كان يمدحهم ويرعى على موائلهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

خُبِزُ إسماعيل كالوئهِ      هِ إذا ما انشقتُ يُرفَا  
عجباً من أثر الصنِّ      حة فيه كيف يخفى

منتضد: مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبية .

(٤) حديث الأربعماء (طبعة سنة ١٩٣٧)

ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) الديوان ص ١٧٢ .

(١) الديوان ص ٢٦٦ .

(٢) عاج : عطف .

(٣) اللساكر : جمع دسكرة وهي القرية

العظيمة . النوي : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ،

إن رفّاعك هذا ألطفُ الأمة كَفًّا

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشي ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء بقدر جوائزهم ، فبَسَّخَسَهُ جَائِزَتَهُ (١) ، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبي نواس أن ينقل لهم كليله ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يحشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستغنى منه ، وتخلّى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلاً . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونسبت بينهما خصومة عنيفة (٢) ، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام (٣) ، وكان من أشد ما هجاه به على نفسه نعتة له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول في إحدى أهاجيه مصوراً ثقله (٤) :

فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمَلُوكَ عَلَى الْخُرِّ قِي وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحْجَاحِ (٥)

فِيكَ تَيْهٌ وَفِيكَ عُجْبٌ شَدِيدٌ وَطِمَاحٌ يَفُوقُ كُلَّ طِمَاحٍ

بَارِدُ الظَّرْفِ مَظْلَمُ الكَذْبِ تَيْاً هُ مُعِيدُ الحَدِيثِ غَثُّ المَزاخِ

وكانت هذه الأبيات سبباً في سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعبيد لا يلقاه ولا يُذَكَّرُ له إلا بجله . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشي يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعاً ، فأثاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول (٦) :

والله لو كنتُ جريراً لما كنتُ بأهَجِي لك من أصلكا

وله أهاج كثيرة في القيان والمغنين ، وحتى من أكرموه مثل الخصيب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائماً يلتمس السيئات وكثيراً ما يُفَضِّي إلى فحش وإقذاع شديد .

ولأبي نواس غزل كثير في المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل في المرأة ما نظمه في جنان ، إذ يعبر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .

(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .

(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .

(٥) الخرق : الحق . الجحجج : الجواد .

(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردُّه رداً منكراً عنيماً ، وهو كلما ردتته ازداد بها غراماً وعليها تهالكاً، وكلف  
بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رآها تندب في  
بعض المآتم<sup>(١)</sup> :

يا قمرًا أبصرتُ في مآتمٍ      يندب شَجْوًا بين أترابِ  
أبرزه المآتمُ لى كارها      برغم داياتٍ وحُجَّابِ  
يبكى فيُدْرِى الدرَّ من نرجسٍ      ويلطِّمُ الوردَ بعُنابِ<sup>(٢)</sup>  
لا تبك ميثًا حلَّ في حُفْرَةٍ      وابك قتيلا لك بالبابِ  
لا زال موتاً دأبُ أحبابه      وكان أن أبصره دابِ<sup>(٣)</sup>

وعبنا استطاع يوماً أن يلقاها ، مما جعله يصطلى حقاً بحبها وناره المحرقة ،  
ويتعذب عذاباً طويلاً ، بثَّه في كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التي  
استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شيء من أمره . ونراه في بغداد يسوق غزلاً كثيراً  
في إمائها وجواربها ، يشوبه بكثير من الفحش الذي ينبو عنه الذوق ، حتى مع  
عنان جارية الناطق ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطرحهم  
الشعر ، ممعنة معهم في كل ما يخوضون فيه من بذاءة تظرفاً ومعايشة<sup>(٤)</sup> . وديوانه من  
هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللاتي كان يجلبهن النخاسون إلى بغداد ،  
وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عرّفن شيئاً من العفة  
والطهارة .

ويتسع الفحش في غزل أبي نواس الشاذ بالغلمان ، حتى ليصبح وصمة في  
جين عصره ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستّر بذلك عن فسقه الحقيقي  
بالجوارى الخليليات<sup>(٥)</sup> . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسر نفسية أبي نواس  
على أساس هذه الآفة الشاذة التي كان يتظاهر بها ليخفي حقيقة سريره وحياته  
المالحة . وينبغي أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه في حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيراً  
من غزله المفحش في الغلمان والنساء جميعاً كان ينظمه في مجالس الخمر تعابشاً

(٣) الدأب : الشأن والعادة .

(١) أغاني ٦/١٨ والديوان ص ٣٦١ .

(٤) العقد الفريد ٦/٥٧ .

(٢) استعمار الدر للدع والنرجس للمين والورد

(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

للند والعناب لأطراف الأصابع .

ومجانة ، على أننا كثيراً ما نقع في ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله (١) :

يا مَنْ له في عَيْنِهِ عَقْرَبُ فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ  
ومن له شمسٌ على خَدِّهِ طالعةٌ بالسَّعْدِ ما تُغْرِبُ

وهو أستاذ فن الحميرية في الشعر العربي غير مدافع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شيء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمائه بشار ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وعصاباتهم من الحبان في البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الحميرية تتكامل صورتها وتُفردُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فناً مستقلاً ، له وحدته الموضوعية ، مستعينا في ذلك بملكاته العقلية الخصبية التي أمدته بكثير من المعاني الدقيقة ومستعينا أيضاً بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التي رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارعة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحياناً فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كثوسها ودنانها وعتقها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه ونهاله على احتسائها من أيدي سقاتها بين آلات الطرب ورنات القيان ، يقول (٢) :

إنما العيشُ سماعٌ ومُدامٌ ونِدامٌ  
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا سلام

فلا حياة في رأيه سوى حياة الخمر والمجون في بيوت القيان وفي الحانات ، ومن ثم مضى يدعو في خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك في قوله (٣) :

لا تَبْكِ ليلي ولا تطربِ إلى هِنْدِ وأشربِ على الورد من حمراء كالوردِ  
كأساً إذا انحدرت في حلقِ شاربها أَجَدَّتْهُ حُمْرَتُها في العين والخذ (٤)

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .  
(٤) أجدته : أفادته وأعطته .

(١) الديوان ص ٤٠٧ .  
(٢) المقدم الفرید ٦/٢٢١ .

فَالخمرُ ياقوتَةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ في كَفِّ جارِيَةٍ ممشوقة القَدِّ  
تسقيك من يدها خَمراً ومن فمها خَمراً فما لك من سُكرين من بُدِّ  
وأخذ يحدِّف كثيراً ضد الدين الخفيف الذي يحرم الخمر وجملة الآثام التي  
كان يتردَّى فيها ، معلناً ذلك إعلاناً صريحاً بمثل قوله (١) :

ترى عندنا ما يُسخط. الله كلُّه من العمل المُردى الفتى ماعدا الشُّرَكَا  
وقد يهادى في ذلك حتى ليعلمن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا حساب ولا بجنة  
ولا نار ، وهو في ذلك كله إنما يتاجن ويتعابث .

وكان كثيراً ما يلمّ بالأديرة ، فيصف معاقرة الخمر فيها وسُقاتها من الرهبان  
والراهبات ، وقد يلمُّ بجانة المحبوسى أو ليهودى . وأتاح له ذلك أن يصف كل تلك  
البيئات بالإضافة إلى حانات الكرخ ببغداد وعلى ضفاف دجلة ، وشعره من هذه  
الناحية مليء بتصوير الحياة الاجتماعية لعصره .

وفي خمرياته فحش كثير ، وكأنا وُجد ليحمل ذنوب عصره وجميع خطاياها .  
على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه وُضع عليه كثير من الشعر في هذا الباب ، إذ تحول  
إلى ما يشبه شخصية أسطورية ، فإذا هو يدخل في قصص ألف ليلة وأيلة ، وإذا  
هو توضع في فحشه ونوادره كتب مستقلة ، بدأها أبو هفان في كتابه « أخبار  
أبى نواس » ومضت تتسع من بعده . وليس ذلك فحسب ، فإن كثيراً من أشعار  
المجَّان الذين عاصروه أضيفت إليه ، وعرف ذلك القدماء ، إذ نرى ابن قتيبة ينصُّ<sup>٤</sup>  
على أن الخمرية المشهورة : « يا شقيق النفس من حكيم » تُنسبُ إليه وهي لوالبة (٢) ،  
ويقول أبو الفرج في ترجمة الحسين بن الضحاك الخليع إنه « كان إذا شاع له شعر  
نادر في الخمر نسبة الناس إلى أبى نواس » (٣) ويقول ابن المعتز : « إن العامة  
الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر في المجنون إلى أبى نواس ، وكذلك تصنع في  
أمر مجنون بنى عامر ، كلُّ شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون » (٤) ولم تقف  
المسألة عند العامة ، بل تعدتهم إلى الرواة ، وأيضاً لم تقف عند شعر الخمر والمجون

(٣) أغاني ١٤٦/٧ .

(٤) ابن المعتز ص ٨٩ .

(١) الديوان ص ٢٥٠ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٧١ .

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه في جميع الموضوعات، ويكفي أن نرجع إلى ترجمة النظام في ابن المعتز، فسراه ينشد له في الخمر بيتين وردا في ديوان أبي نواس<sup>(١)</sup>، وينشد له قطعة في مديح الأمين جاءت أيضاً في ديوان أبي نواس<sup>(٢)</sup>، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالي المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية في الغزل إلى النظام وهي مبثوثة في الديوان<sup>(٣)</sup> وكان الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعاني وبعد في الخيال والوهم. وكان حملهم عليه لأشعار المجان أوسع مدى، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبي العتاهية<sup>(٤)</sup>

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماخن، إنما نزعم أنه حمل عليه كثير في هذا الباب، ومن ثم ينبغي أن لا نتسع في أحكامنا عليه، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهاني، فإنها تمتلئ بالشعر الموضوع عليه، ولذلك لا يصح أن تتخذ أساساً لدرسه وبحثه. وهو يعتد في كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ المونق والأسلوب الرصين، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عدوبة ونعومة، غير أن له أيضاً وراء ذلك كثيراً من الشعر المهلهل، إذ «كان لا يقوم على شعره ويقول على السكر كثيراً، فشعره متفاوت، لذلك يوجد فيه ما هو في الشرياً جودة وحسناً وقوة وما هو في الخفيض ضعفاً وركاكة»<sup>(٥)</sup>. وكان كثيراً ما يدخل ألفاظاً فارسية في خمرياته بحكم شيوع الفارسية في الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان المحبوس الذين كان يتغزل بهم، ودفعه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثة، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم. وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجاب من روائع الشعر ونادره، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة، جعلته يحكم تصاويره ويجري فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة.

وحين علت سين أبي نواس وخطه الشيب أخذ يفتق أحياناً من سكره مفكراً

(٤) انظر الأغاني ١١/٤ ، ٢٩ ، ٧٠

والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ،

٢٠٠ .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان

ص ٢٦٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦

(٣) أمال المرتضى ١٨٨/١ والديوان

ص ٤١٩ .

في الحياة وعواقبها وفي البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينبس إلى ربه ، مما جعله يردد أنغاماً مختلفة في الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقوى والعمل الصالح من مثل قوله (١) :

يا طالب الدنيا ليجمعها جمحتُ بك الآمال فاقصد  
والقصد أحسن ما عملتَ له فاسلكُ سبيل الخير واجتهد  
واعملْ لدارٍ أنتَ جاعلُها دارَ المقامةِ آخرَ الأبدِ

وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير في الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما يتزله بالناس من خير وشر بمجونيته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلاً حتى يوجد عمر الخيام وكان أبو نواس خياماً آخر وأوجد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبه الوقع مع الغلمان والحواري . ومرّ بنا في الفصل السابق أنه عني في بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسلمات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفرّ له عنايته صفاء النغم وعذوبته . ولعل ذلك هو الذي دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والمجزوءة .

### أبو العتاهية (٢)

وُلد أبو العتاهية لإسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان في «عين التمر» بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطياً من موالى بني عترة ، أما

ومرأة الجنان ٤٩/٢ وشذرات الذهب ٢٥/٢  
ومروج الذهب للمسعودي ٣/٢٤٠ ، ٢٧٤ ،  
٣٥٨ وزهر الآداب للحصري ٢/٣٤ وما بعدها  
وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق (نشر لجنة البيان  
العربي بالقاهرة) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء  
اليسوعيين ببغداد سنة ١٨٨٦ م .

(١) الديوان ص ١٩٣ .  
(٢) راجع في ذي العتاهية وأخباره وأشعاره  
أغاني (طبع دار الكتب) ١/٤ وطبعة الساسي  
في ترجمة والبة ١٦/١٤٢ وترجمة سلم الخاسر  
٢١/٧٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥  
وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها و٣٦٤ وتاريخ  
بغداد ٦/٢٥٠ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤

أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين . وكان أبوه يشتغل بالحجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به في بلدته ، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته ، ومعه ابناه الصغيران : زيد وأبو العتاهية ، ولا يكاد يشبّ ثانيهما ، حتى نراه ينتظم في سلك المختلئين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزواملَ تميزهم<sup>(١)</sup> . ولعل في ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع ، إذ نشأ في أسرة فقيرة مغموراً ، لا يعتزّ بأى شيء في دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة ، وكان دميم الوجه قبيح المنظر<sup>(٢)</sup> ، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون ، فإذا يصنع ؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط في جماعة المختلئين ، وبذلك كُتِب عليه أن يكون سيئ السيرة في مطالع حياته . وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجرار والفخار ، فحاول أن ينقذه مما تردّى فيه ، وما زال به حتى أشركه معه في حرفته ، وكان نَسَب الشعر قد أخذ يتدفّق على لسانه ، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسّر من الخزف وما يشرونه من الجرار<sup>(٣)</sup> .

واشتهر أمر أبي العتاهية في الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس والباله ، كما أخذ يخلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين في مساجد الكوفة ، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات ، وهو في أثناء ذلك يُكثّر من نظم رقائص الغزل ومن الغدو والرواح إلى نوادي القيان والمغنين ، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النَبَط دوت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلي ، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد<sup>(٤)</sup> ، لعل بضاعتها تروج فيها ، وفتحت الأبواب لإبراهيم بينما سُدّت في وجه أبي العتاهية ، فصمّم على العودة إلى الكوفة ، وعرّج في طريقه على الحيرة ، ورأى بها نائحة تسمى سَعْدَى كانت مولاة لبنى مَعْن بن زائدة ، وكانت ذات حسن وجمال ، فشغفت قلبه حباً ، وأخذ ينظم فيها شعره ، غير أنها أعرضت عنه ، وتصدّى له مولاها عبد الله ابن مَعْن ، ونهاه أن يعرض لها ، فعمد إلى هجائه هجاء مُقنّداً ، فأنزل به

(٣) أغاني ٩/٤ .

(٤) أغاني ٤/٤ .

(١) أغاني ٧/٤ .

(٢) أغاني ٧٥/٤ وانظر المسعودي ٣/٣٦٠ .

عقاباً صارماً إذ ضربه مائة سوط ، وتوسط بينهما مواليه من عترة ، وكفَّ  
أبو العتاهية لسانه<sup>(١)</sup> .

ويتم الكوفة غير أن مقامه لم يَطُلْ بها ، فإن إبراهيم الموصلي صديقه أقبلت  
عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) وقربه مع من قرب من  
المغنين ، فأرسل إليه أن يَلْحَقْ به ، ليقدمه للخليفة ، وطار إليه أبو العتاهية ،  
وأعجب الخليفة بمديحه ، وأخذ يقدق عليه جوائز<sup>(٢)</sup> ، وأوسع له في مجالسه حتى  
أصبح أثيراً عنده مقدماً ما له على كثير من الشعراء ، وحتى نراه يقبل شفاعته في أحد  
وزرائه وقد أمر بسجنه<sup>(٣)</sup> . ويعظم شأن أبي العتاهية وبتهاداه كبار رجال الدولة  
ووجوهها وفي مقدمتهم خال المهدي يزيد بن منصور الحميري وقائده وواله على  
طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وله يقول من قصيدة :

إني أمنتُ من الزمان ورِيَّيه لما علقْتُ من الأمير حِيالاً  
ويقال إنه وصله على القصيدة بسبعين ألف درهم<sup>(٤)</sup> .

وتمر الأيام بأبي العتاهية باسمه ، غير أن سحابة لالتبت أن تتعدق في سمائها ، فقد تعلقت  
بجارية من جواري زوجة المهدي رائطة بنت السفاح ، وهي عتْبة ، وكانت تزدرية  
كما ازدرتة سَعْدِي من قبل ، ومضى لا يكفُّ عن غزله بها ولا يرعوى ، فعرفت  
مولاتها خبره وأثارتها عليه ، فحدثت المهدي بشأنه ، فغضب لتعرضه لحرمة وجواري  
قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميري أن  
شفع له لدى المهدي ، فعفا عنه وردَّ إليه حريته ، ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها  
حباً صادقاً إنما كان يريد الشهرة في الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن في حبها  
وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحب تكلفاً<sup>(٥)</sup> ، وقد ظل يذكرها  
ويتغنَّى باسمها طويلاً ، ولعل ذلك هو الذي جعل المهدي يقول له إنك إنسان  
معتة ، فاستوى له بذلك لقبه « أبو العتاهية » وغلب على اسمه<sup>(٦)</sup> .

وكانت بغداد لعهد المهدي قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة

(١) انظر القصة في الأغاني ٢٢/٤ وما بعدها .  
(٢) انظر ابن المعتز ص ٢٣١ والمسمودي ٢٤٠/٣ وزهر الآداب ٣٨/٢ .  
(٣) أغاني ٥٦/٤ .  
(٤) زهر الآداب ٣٤/٢ وانظر الأغاني ٣٨/٤ .  
(٥) انظر في قصته مع عتبة ابن المعتز ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٣٥/٢ وتاريخ بغداد ٢٥٤/٦ وما بعدها .  
(٦) أغاني ٢/٤ .

قصد المعاش والتكسب ، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة الحجان من أمثال مطيع ابن إياس والبة وأبي نواس ، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبث معهم من كثوس الحمر واللهو في دور القيان والمجانة بالكرخ من أمثال دار القراطيسي<sup>(١)</sup> وفي الأديرة من مثل دير أشموني<sup>(٢)</sup> . ويفسد الأمر بينه وبين والبة ، فيصليه ناراً حامية من هجائه بمثل قوله يعرض باعتزائه المزيف للعرب ، إذ كان ينسب نفسه في بني أسد<sup>(٣)</sup> :

أوالبُ أنت في العربِ كمثل الشَّيْصِ في الرُّطْبِ  
هلمَّ إلى المولى الصَّيِّدِ في سَعَةٍ وفي رَحْبِ  
فأنت بنا لعمر الله أشبه منك بالعرب  
وما زال به حتى فضحه فعاد إلى الكوفة كالمهارب وخمل ذكره<sup>(٤)</sup> .

ويتوفى المهدي فيخلفه الهادي ( ١٦٩ - ١٧٠ هـ ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه في كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر ، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة ( ١٧٠ - ١٩٣ هـ ) وكان منقطعاً إليه ملازماً له أيام أبيه المهدي ، فاتصل ما انقطع في مدة الهادي القصيرة ، وأصبح لا يفارقه في سفر ولا حضر « وكان يُجترى عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلوات السنية »<sup>(٥)</sup> وكثيراً ما كانت تبلغ في المرة الواحدة مائة ألف درهم<sup>(٦)</sup> . وينال جوائز كثيرة من كبار رجال الدولة حينئذ وعلى رأسهم يزيد بن يزيد الشيباني ، ويقال إنه أجازته في إحدى مدائحه فيه بعشرة آلاف درهم<sup>(٧)</sup> ويظهر أنه دق أبواب البرامكة طويلاً ، ولكنهم لم يفتحوها له ، إذ كانوا مشغولين عنه بشعرائهم من أمثال أبان وأشجع السَّامِيّ .

وظل يعيش للهو والقصف ، حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة ، وهي السنة التي نزل فيها الرشيد الرقة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتقصف ولبس الصوف . ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى مديحه الرائع له وإلى ما كان يضيفه عليه من بديع الثناء ، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه ، ويأمر بضربه وحجسه

(٤) أغاني ١٦/١٤٢ .

(٥) أغاني (دارالكتب) ٤/٦٣ .

(٦) أغاني ٤/٧٤ .

(٧) أغاني ٤/١٠٠ .

(١) أغاني (ساسي) ٢٠/٨٨ .

(٢) الدهرارات للشابثي ص ٣١ .

(٣) أغاني (ساسي) ١٦/١٤٢ .

والتيص : أردأ المعمر .

في دار موسعاً عليه حتى يصدع لأمره ، ويسترسل أبو العتاهية في استعطافه بمنزل قوله<sup>(١)</sup> :

إنما أنت رحمةٌ وسلامةٌ زادك الله غبطةً وكرامةً  
لو توجَّعتَ لي فروَّحتَ عني رُوِّحَ اللهُ عنك يومَ القيامةِ

ويرقُّ له الرشيد ويأمر بإطلاقه ، ويأخذ منذ هذا التاريخ في الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد تشكك معاصروه في هذا الزهد الذي طرأ عليه ، وردته كثيرتهم إلى عناصر مانوية ، حتى أشك حَمْدُ وَيْتَه صاحب الزنادقة المانويين أن يُنزل به العقاب الصارم الذي كان يُنزله بأمثاله ، لولا أن موته عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين<sup>(٢)</sup> ، ويقال إن منصور بن عمار هتف به في بعض وعظه ، وقال : إنه زنديق مستدلا على ذلك بأنه يكثر من ذكر الموت في شعره ولا يذكر الجنة والنار<sup>(٣)</sup> . وهي ملاحظة دقيقة ، ذلك أن أبا العتاهية يذكر الثواب والعقاب في الآخرة حقاً ، ولكنه لا يفصل الحديث فيهما تفصيل القرآن الكريم ، ومن المعروف أن المانوية كانوا يدعون للزهد في الدنيا والعمل للآخرة كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش<sup>(٤)</sup> ، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبي العتاهية الزاهدة ، وخاصة أنه استقى فيها كثيراً من آي الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن من يتعمق في هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولاً بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ومن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر ، وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشر ، وفي كل حاسة من حواس الإنسان جنس قائم بنفسه من النوعين ، جنس مستقل عما يماثله في الحواس الأخرى<sup>(٥)</sup> ، وفي ذلك يقول أبو العتاهية<sup>(٦)</sup> :

لكل شيءٍ معدنٌ وجوهرٌ وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبرٌ

(٥) انظر الحيوان ٤٤١/٤ والشهرستاني

ص ١٨٨ .

(٦) أغاني ٣٧/٤ .

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٧ .

(٢) أغاني ٧/٤ .

(٣) أغاني ٣٤/٤ .

(٤) طبري ٤٣٣/٦ .

وكلُّ شيءٍ لا حِقُّ بجوهره أصغره متصلٌ بأكبِره  
 الخيرُ والشرُّ هما أزواجٌ لذا نِتَاجُ ولذا نتاجُ  
 لكلِّ إنسانٍ طبيعتانِ خيرٌ وشرٌّ وهما ضدَّانِ  
 والخيرُ والشرُّ إذا ما عُدَّا بينهما بونٌ بعيدٌ جدًّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانًا بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ،  
 وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية ، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى  
 في العقيدة إلى آخر الشوط ، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله (١) :

فيا عجباً كيف يُعصَى الإلَهُ أم كيف يجحدُه الجاحِدُ  
 وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ

وكانه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية ، وفي ذلك يقول  
 أحمد بن حرب : « كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين  
 متضادين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما .. وكان يزعم أن الله  
 سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفتى الأعيان جميعاً (٢) » وهو  
 يقصد بالجوهرين طبعاً النور والظلمة أو الخير والشر .

وابن حرب يضع في يدنا المفتاح لحل مشكلة أبي العتاهية ، فهو ليس مانوياً  
 ثنويًا يؤمن بأن للعالم إلهين ، كما ظن ابن المعتز (٣) وبعض معاصريه ، إنما هو  
 مانوي من نمط جديد ، إذ يمزج بين المانوية والإسلام ، إلا إذا كان قد موّه عن  
 مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه . ومر بنا في الفصل الثاني أن تعاليم ماني كانت  
 مزيجاً من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ، ونرى أبا العتاهية يصور لنا في بعض  
 شعره الزاهد الناسك في صورة بوذا المشهورة إذ يقول (٤) :

يا مَنْ تشرف بالدنيا وزينتها ليس التشرفُ رَفَعَ الطَّيْنِ بالطَّيْنِ  
 إذا أردت شريفَ الناسِ كلَّهم فانظرْ إلى ملكٍ في زِيٍّ مسكينٍ

(٣) ابن المعتز ص ٢٢٨ ، ٣٦٤ .

(٤) الديوان ص ٢٧٤ .

(١) أغاني ٤ / ٣٥ .

(٢) أغاني ٤ / ٥ .

ومعروف أن بوذا - عند الهنود - كان ملكاً أو ابن ملك خلع ثياب ملكه وساح في العالم عابداً ناسكاً . وخصّصلة عند أبي العتاهية لا يمكن تفسيرها إلا على أساس نزعتة المانوية ، ذلك أنه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحاً شحناً شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضة وتروى في شحه نوادر كثيرة<sup>(١)</sup> ، تدلُّ على حرصه البالغ ، حتى ليأبى أن يتصدَّق بدانتق ، وتفسير ذلك أن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوي الصادق ينبغي أن يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كسب غيره الذي عليه غُرمه ومأثمه<sup>(٢)</sup> ، فهو يجرِّم ماله على نفسه وعلى غيره ويعيش على السؤال والاستجداء . وفعلاً ظل أبو العتاهية على الرغم من نسكه الظاهر يمدح الرشيد وينال جوائزه ، فهو يمدحه حين يعهد عهده المعروف لبنيه الثلاثة<sup>(٣)</sup> سنة ١٨٦ وهو يمدحه حين يهزم تقفور إمبراطور بيزنطة ويستولى على هرقله<sup>(٤)</sup> سنة ١٩١ . وحين يتوفى الرشيد يبادر إلى مديح الأمين بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

يا عمودَ الإسلام خيرَ عمودٍ      والذي صيغ من حياءٍ وجودٍ  
إن يوماً أراك فيه ليومٌ      طلعت شمسُه بسعدِ السُّعودِ

وينال جوائزه وجوائز أمه زبيدة . ولما قتل الأمين وقتل المأمون العراق الحسن ابن سهل أسرع يدقُّ بابه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم<sup>(٦)</sup> ، وقدم المأمون فاستقبله بمثل قوله<sup>(٧)</sup> :

لخيرٍ إمامٍ قام من خيرٍ عنصُرٍ      وأفضلٍ راقٍ فوق أعوادٍ منبِرٍ

ويقول الرواة إنه كان يجري عليه في كل عام عشرين ألف درهم غير ما كان يقدِّم عليه من جوائزه في الحين بعد الحين<sup>(٨)</sup> . ومعنى ذلك أن زهده إنما كان زهداً في الظاهر ، أما في الباطن والواقع فقد ظل من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، وظل يطلبها ويلج في الطلب إلحاحاً شديداً وسجَّل عليه سلم الخاسر ذلك في بعض أشعاره<sup>(٩)</sup>

- |                               |                                   |
|-------------------------------|-----------------------------------|
| (١) أغاني ١٦/٤ وما بعدها .    | (٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٩/٤ .  |
| (٢) الحيوان ٤٥٩/٤ .           | (٧) أغاني (سأى) ١٣/٢١ .           |
| (٣) أغاني ١٠٤/٤ .             | (٨) أغاني (دار الكتب) ٥٣/٤ .      |
| (٤) أغاني (طبع السأى) ٤٦/١٧ . | (٩) أغاني (سأى) ٧٦/٢١ وانظر أغاني |
| (٥) أغاني (طبع السأى) ١١/٢١ . | (دار الكتب) ٧٦/٤ .                |

وهكذا ظلَّ يسترفد الخلفاء والوزراء ، حتى وافته منيته سنة مائتين وإحدى عشرة وقيل سنة اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة .

ولعل فيما قدمنا ما يدلّ دلالة بينة على أن طبيعة أبي العتاهية كانت معقدة ، فهو نبطى أحسنّ غير قليل من المسكنة منذ نشأته ، وقاده هذا الإحساس أولاً إلى أن يصبح مخنثاً ، ثم ماجناً ، وقاده أخيراً إلى أن يصبح زاهداً على طريقة المانويين من سؤال الناس ومما طابت به أنفسهم له . وتدلل نزعته المانوية على أنه اضطرب بين أصحاب المقالات ، ويؤكد ذلك عنده ما يقال من أنه كان على مذهب الشيعة الزيدية البُتْرية<sup>(١)</sup> ، ونؤمن - مع نيكلسون<sup>(٢)</sup> - بأنه لم يعش هذا المذهب حقاً ، إذ يشيد في أشعاره بأبي بكر وعمر وعثمان<sup>(٣)</sup> ، إنما هو ضرب من الاضطراب بين أصحاب النحل سرعان ما زايله . وقد دفعته صلته بالمانويين إلى الاطلاع الواسع على الآداب الفارسية ، ونقل كثيراً من حكمها إلى أشعاره . ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «ذات الأمثال» التي صور فيها نظرية الخير والشر المانوية والتي أنشدنا منها الأبيات السالفة . ويظهر أنه قرأ كثيراً مما تُرجم عن فلاسفة اليونان ، ومن ثمّ وصل بعض معاصريه بينه وبينهم<sup>(٤)</sup> ، ومرّ بنا في الفصل السابق نقله لجوانب من مرآة فلاسفة اليونان للإسكندر في رثائه لصديقه على بن ثابت ، وكان من رءوس<sup>(٥)</sup> الزنادقة ، ولعله هو الذى دفعه في هذا الطريق . وكان إلى ذلك مثقفاً ثقافة إسلامية واسعة ، وهى تتضح في كثرة ما نقله إلى زهدياته من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أيضاً مثقفاً ثقافة عربية دقيقة جعلته يتقن اللغة ويرع في الشعر ، حتى أصبح له طبعاً .

وكل هذه العناصر التي اصططلحت على تكوين طبيعة أبي العتاهية جعلتها أبعد الأشياء عن البساطة كما جعلتها خصبة واسعة الخصب . وكل من يقرأ أشعاره يلاحظ أنها تمثل حياته وما حدث فيها من انقلاب أوضح تمثيل ، فهو في شطر منها يتغزل ويصف الخمر ، وهو في الشطر الثاني يكف عن الغزل ووصف الخمر

(١) أغاني ٦/٤ .

(٢) انظر التاريخ الأدب للعرب لنيكلسون

(٣) الديوان ص ١٠٤ .

(٤) أغاني ٢/٤ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

مستبدلاً بهما الزهد ونثر الحكم والدعوة إلى محاسن الأخلاق . وإذا كنا لاحظنا عند أبي نواس وبشار أنهما كانا يحافظان إلى حد كبير في مدائحهما على الأوضاع والتقاليد الموروثة في الصياغة وفي التمسك بوصف الأطلال وبكاء الديار ونعت الصحراء وإبلها وحيوانها وكل ما يتصل بها فإن أبا العتاهية يخطو إلى الإمام خطوة بمدائحها إذ ينتحى عن الصحراء والأطلال إلا ما قد يأتي عرضاً ، وأيضاً فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين ، وكأنه يريد أن يفسح لأساليب عصره اللينة الخفيفة ، ومن خير ما يمثل ذلك مدحته اللامية للمهدى ، وفيها يقول (١) :

أنته الخلفة منقادةً إليه تُجرُّ أذيالها  
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها  
ولورامها أحدٌ غيره لزلزلت الأرض زلزالها  
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها (٢)  
وإن الخليفة من بغض لا إليه ليُبغض من قالها

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف ، وألفاظها تسيل نعمة وعدوبة . وأكبر خليفة عني بمدح هرون الرشيد فقد كان يمدحه في سلمه وحر به وفي كل المناسبات من مثل توليته العهد لبنيه ، وفي هذه التولية يقول (٣) :

وشدَّ عرى الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةٍ أملاكٍ ولاةٍ عهودٍ  
وكان يحرص دائماً على مديحه بالتقوى والانصراف عن الدنيا متعرضاً لوصف  
جيوشه وذبته عن حمى الإسلام وما ينزل بأعدائه من موت يمدحهم محققاً ،  
على شاكلة قوله (٤) :

وهرونُ ماءُ المزنِ يُشفي به الصدى إذاما الصدى بالريق غصت حناجره (٥)  
وأوسطُ بيتٍ في قريشٍ لبيتهُ وأولُ عزٍّ في قريشٍ وآخره

(٤) أغاني ١٥/٤ .  
(٥) المزن : السحاب المطر . الصدى :  
بفتح الدال : العطش وبكسرهما العطشان .

(١) أغاني ٣٣/٤ .  
(٢) بنات القلوب : النيات .  
(٣) أغاني ١٠٤/٤ .

وَزَحْفٍ لَه تَحْكِي الْبُرُوقَ سِدُوقَهُ      وَتَحْكِي الرَّعُودَ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرَهُ  
 إِذَا نُكِبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ      فَهَرُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ ثَائِرَةٌ  
 وَمَنْ ذَا يَفُوتُ الْمَوْتَ ، وَالْمَوْتُ مَدْرَكٌ      كَذَا لَمْ يَفُتْ هَرُونَ ضِدًّا يُنَافِرَةٌ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْغِدُ في جزائته ورسائته ، إذ كان يُعْنَى باختيار ألفاظه من المعجم اليومي أو بعبارة أدق بما يقاربه سهولة . وقد نظم استعطافات كثيرة للرشد حين حبسه ، وهي لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب ، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع ، حتى ليبادر الرشد بالهفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله (١) :

أَنَا الْيَوْمَ لِي ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَشْهُرُ      يَرُوحُ عَلَيَّ الْهَمُّ مِنْكُمْ وَيَبْتَكُرُ  
 تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي      وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي لَعَلَّكَ تَذَكَّرُ

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلّفه فيه يدل على إحكامه لسهامه ، حتى لنرى والبة بن الحباب يفرّ على وجهه منه إلى الكوفة ، ومن أوائل هجائه أشعاره في عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سَعْدَى النَّائِثَةِ ، وقد صوّره في بعض هذه الأشعار صورةً نَسَدِيًّا لها وجهه طويلا ، إذ أخلاه من العقل والشجاعة بل أيضا من الرجولة ، حتى ليقول على لسانه (٢) :

أَنَا فِتَاةُ الْحَيِّ مِنْ وَائِلٍ      فِي الشَّرَفِ الشَّامِخِ وَالنُّبْلِ  
 مَا فِي بَنِي شَيْبَانَ أَهْلِ الْحِجْبِ      جَارِيَةٌ وَاحِدَةٌ مِثْلِي  
 قَدْ نَقَطْتُ فِي وَجْهِهَا نَقْطَةً      مَخَافَةَ الْعَيْنِ مِنَ الْكُحْلِ  
 إِنْ زُرْتُمُوهَا قَالِ حُجَابَهَا      نَحْنُ عَنِ الزُّوَارِ فِي شُغْلِ

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه بمثل هذه النبال المصمية ، فن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سلم الخاسر ، فما هو إلا أن قال فيه :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو      أذَلَّ الْحَرُصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

حتى سار البيت مسير الأمثال ، وحتى أن<sup>(١)</sup> منه سلم طويلاً<sup>(٢)</sup> . ويقول ابن المعتز إنه « أتى باب أحمد بن يوسف كاتب المأمون ، فحجج<sup>(٣)</sup> عنه ، فقال :

متى يظفر الغادى إليك بحاجةٍ ونِصْفُكَ محبوبٌ ونِصْفُكَ نائم  
فسار بيته هذا في الآفاق ، وجعل الناس يتناشدونه ، فاعتذر إليه ابن يوسف<sup>(٤)</sup> :  
وَجِلًّا من أن يَمَادَى في هجائه .

وبين أيدينا له مرث مختلفة ، لعل أحرها مرثيه في صديقه علي بن ثابت الزنديق ، وقد أنشدنا منها أطرافاً في الفصل السابق ، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلاً ندباً كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

فَتَى لم يَمَلَّ النَّدى سَاعَةً على عُسْرِهِ كَانَ أو يُسْرِهِ  
أَتَتْهُ المنيَّةُ مَغْتَالَةً رُوَيْدًا تَخَلَّلَ من سِتْرِهِ  
فخَلَّى القصور لمن شادها وحلَّ من القبر في قَعْرِهِ  
وأصبح يُهْدَى إلى منزلٍ عميقٍ تُوثِقُ في حَفْرِهِ  
أشدُّ الجماعة وَجَدًّا بِهِ أشدُّ الجماعة في طَمْرِهِ

وليس له خمريات كثيرة وكأنما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره ، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقص<sup>(٦)</sup> للخمر وندمانها وساقيتها ومن يلم<sup>(٧)</sup> بهم من الجوارى الحسان ، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الملاجئة في الكوفة<sup>(٨)</sup> :

لهفى على الزمن القصير بين الخَوْرَنْقِ والسِّدِيرِ<sup>(٩)</sup>  
إذ نحن في غُرْفِ الجِنَا ن نعومُ في بحر السُّرور  
في فتيمةٍ ملكوا عِنا ن الدهر أمثال الصقور

(١) أغاني ٧٥/٤ وطبعته السامى ٧٦/٢١ .  
(٢) ابن المعتز ص ٢٣٣ .  
(٣) اللديوان ص ١٢٤ .  
(٤) أغاني ٦٠/٤ .  
(٥) الخورنق والسدير : قصران قديمان بالقرب من الكوفة .

ومُقَرَّطِيٍّ بِمَشَى أَمَا م القوم كالرَّشِيَا الغَرِيرِ (١)  
 بزجاجةٍ تَمْتَخِرُجُ السُّ رَ الدفين من الضمير  
 زهراء مثل الكوكب الـ دُرِّيُّ في كَفِّ المَدِيرِ  
 ومخصَّرات زُرُنْنَا بعد الهدوء من الخدورِ (٢)  
 يَرُقُلْنَ في حُلَلِ المحاسنِ والمجاسدِ والحريِرِ (٣)

والمقدمة تكتظ على هذا النحو بغير قليل من مشاعر الفرح والبهجة .  
 وقد مرَّ بنا تلطُّه بعبئة ، وله فيها غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ،  
 وأكبر الظن أن رفته فيه جاءته من تخنثه القديم ، حتى ليقول ابن قتيبة إن غزله  
 يشاكل طبائع النساء ، وكأنما سرَّتْ فيه مشاعرهن ، وهي مشاعر تقترن عنده  
 بالتذلل والتضرع على شاكلة قوله :

بَسَطْتُ كَفِّيْ نَحْوَكُم سَائِلًا مَاذَا تَرُدُّونَ عَلَيَّ السَّائِلِ  
 إِنْ لَمْ تُنِيلُوهُ فَقُولُوا لَهُ قَوْلًا جَمِيلًا بَدَلِ النَّائِلِ  
 أَوْ كُنْتُمْ الْعَامَ عَلَيَّ عُسْرَةَ وَيَلِي فَمَنْتُوهُ إِلَى قَابِلِ

ويقول ابن المعتز معلقاً على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء  
 موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته (٤) » . وعلى نفس هذا المثال قوله في عبئة  
 أيضا (٥) :

كَأَنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا دُرَّةٌ أَخْرَجَهَا الِيسْمُ إِلَى السَّاحِلِ  
 كَأَنَّ فِي فِيهَا وَفِي طَرْفِهَا سَوَاحِرًا أَقْبَلْنَ مِنْ بَابِلِ  
 لَمْ يُبَيِّنْ مِنِّي حُبُّهَا مَا خَلَا حُشْمَاشَةً فِي بَدَنِ نَاحِلِ  
 يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا بِكِي مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلَى الْقَاتِلِ

(٣) يرفلان : يتبخترن . المجاسد : القمصان  
 الداخلية الرقيقة .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٠ .

(٥) أغاني ٤ / ٤٥ .

(١) مقرطق : يلبس القرطق وهو ثوب ذو  
 طاق واحد .

(٢) مخصرات : دقيقات الحصور . الهدو  
 من الليل : أوائله .

ودائمًا يشكو مسكنته وأن صاحبه لا تنيله كثيراً ولا قليلاً وأنها استرقته ولا ترد عليه حريره ، وأنها أضنته وأسقمته ، وأنها تزهد فيه وهو المحب الوامق الذي يرسل الدموع مِدَّ رَأْرَأٍ عَلَى مَنْ ظَلَمْتَهُ ، وإنه ليستجير ولا يجير ويتصبر ولا صبر إلا النواح الطويل

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تُعَدُّ انقلاًباً في حياته ، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد ، وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق ، فالكل مصيره إلى الفناء والكل وشيك الزوال ، والكل سيصبح تراباً في تراب ، يقول (١) :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يُصِيرُ إِلَى تَبَابٍ (٢)  
ويقول (٣) :

الناس في غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَى الْمَيْتَةِ تَطْحَنُ  
ويقول (٤) :

كُلُّ حَيٍّ عِنْدَ مَيْتَتِهِ حِظُّهُ مِنْ مَالِهِ الْكَفْنُ  
ويقول (٥) :

بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ حَيٍّ عِلْمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ  
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْمَةَ كَيْنَ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ

وهكذا يمضي بمعنى الحياة إلى أهلها ويكيها ويندبها ، مهولاً رقة الموت الأبدية ، ومنغصاً على مَنْ يسمعه كل لذة له وكل نعيم ، فالأجل قصير والمنايا راصدة ، والقدر أرزق ونحن آلات بأكفه . ولعله من أجل هذا الإحساس آمن بالجبر والاضطرار (٦) ، وإنه ليصرخ من أعماق قلبه : ليس هناك إلا الفناء وإلا الأسي والكآبة ، وهي نظرة سوداء جاءت من مانويته ، إذ الإسلام لا يتسعى إلى

(٤) الديوان ص ٢٥٢ .

(٥) أغاني ٤/١٠٣ .

(٦) أغاني ٤/٦ .

(١) الديوان ص ٢٣ .

(٢) تباب : هلاك .

(٣) الديوان ص ٢٦٧ .

الناس حياتهم ولا يصورها لهم في كرب أبي العتاهية التي تخنق الأنفاس والتي تجعله يقف طويلاً عند سكرات الموت وما يعانیه المحتضر من آلام كما تجعله يقف عند نزلاء القبور والقبور نفسها يسألها عن أصحابها ، مسجلاً أن ذوى السلطان يستون مع السوقة في الموت وأن الطبيب كثيراً ما يسبق مريضه إلى ساحته ، يقول<sup>(١)</sup> :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضُ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ  
وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور ، ولكنه لا يترسل في ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، بل يلم إماماً بالبعث والحساب على شاكلة قوله<sup>(٢)</sup> :

فلو أنا إذا مُتْنَا تَرَكْنَا لكان الموتُ غايةَ كلِّ حيٍّ  
ولكننا إذا مُتْنَا بُعِثْنَا ونُسألُ بعده عن كلِّ شئٍ

ويتسع أبو العتاهية في أشعاره الزاهدة ، حتى لتؤلف وحدها ديواناً كاملاً ، وفعلاً جمع منها ابن عبد البرّ النّمري الأندلسي ديواناً مستقلاً ، وقد بنى اليسوعيون على هذا الديوان نشرتهم لأشعار أبي العتاهية باسم « الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية » ضامين إلى رواية النّمري ما تيسر جمعه من أشعار الشاعر وقصائده . وأبو العتاهية في زهدياته ، كما رأينا ، يطيل الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان ، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً ، وهو في عظاته يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوي ووعظ الوعاظ من أمثال الحسن البصري ، كما يستمد من أشعار سابقه ، وقد وقف المبرد عند موعظة له يستهلها بقوله :

يا عجيباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

وردّها إلى بعض الأحاديث النبوية وإلى كلام الحسن البصري وعلى بن أبي طالب وإلى معاني بعض الشعراء مثل الخليل بن أحمد<sup>(٣)</sup> . وهو في جوانب من مواظفه يلتقي بآي الذكر الحكيم في اتخاذ العبرة من الأمم الداثرة والقرون الخالية

(١) الديوان (طبعة سنة ١٩٠٩) ص ١٨ . (٢) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢٣٠ وما بعدها . (٣) الديوان ص ٣٠٢ .

وفي تصوير الموت وسكراته ، وقد يسوق ذلك بلفظ القرآن الكريم من مثل قوله (١) :

يا عجباً كلُّنا يَحِيدُ عن الِ حَيْنٍ وكلُّ لَحِينِهِ لا قِ  
 كَأَنَّ حَيًّا قد قام نادِبُهُ والتفتُ الساق منه بالساق (٢)  
 واستلَّ منه حياته ملك الِ موتٍ خَفِيًّا وقيل : مَنْ راق (٣)

وطبيعي أن يطبع أسلوبه في الزهد بطوابع الأسلوب الوعظي من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر . ونراه يشيع في زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قوله (٤) :

سبحان من لا شيء يحجبُ علمه فالسُّرُّ أجمع عنده إعلانُ  
 سبحان من هو لا يزال مُسَبِّحًا أبداً وليس لغيره السُّبْحان  
 وقوله (٥) :

إلهي لا تُعَذِّبني فَإِنِّي مُقِرُّ بالذي قد كان مِنِّي  
 ومالي حيلةٌ إلا رجائي لعفوك إن عفوتَ وحسُنُ ظنِّي

وبجانب ذلك نراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق كما يذيع حكما وأمثالا كثيرة مقتبسا لما من الآداب الفارسية كما أسلفنا، وما روى عن حكماء العرب مثل لقمان (٦) ، وأورد لها - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - قصيدته « ذات الأمثال » التي يقال إنها امتدت إلى أربعة آلاف بيت .

وكانت عامة بغداد تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته ، وفي أخباره أن بعض الملاحين غنوا الرشيد في إحدى نزهاته على صفحات دجلة بعظة من عظاته (٧) ، وفي ذلك ما يدل على ما كان لأشعاره الزاهدة من صدى عميق في نفوس الطبقة

(١) الملائكة حين يسألون من يرق به إلى السماء ،  
 أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب .  
 (٤) الديوان ص ٢٥٨ .  
 (٥) الديوان ص ٢٦٣ .  
 (٦) البيان والتبيين ٢/٧٦ .  
 (٧) أغاني ٤/١٠٢ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ .  
 (٢) الشطر الثاني اقتباس من الآية رقم ٢٩  
 من سورة القيامة . والتفاف الساق بالساق كناية  
 عن تقدمها للحركة .  
 (٣) آخر البيت اقتباس من الآية ٢٧ من  
 سورة القيامة ، والقائل إما أهل الميت حين  
 يأسون منه ويطلبون له الرائق أو الطبيب ، وإما

العامة التي لم تكن تعرف ترفاً ولا نعيمًا ، إنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش ، وكأنما أحسّت عنده أنه يتغنى آلامها وبؤسها . وزراه يتعمقه الشعور بما هي فيه من ضنك ، فإذا هو يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار ، يقول في تضاعيفها<sup>(١)</sup> :

من مبلغ عني الإما م نصائحًا متتالية  
 أنى أرى الأسعار أنه عار الرعيّة غاليه  
 وأرى المكاسب نزرّة وأرى الضرورة فاشيه  
 من يرتجى للناس غيّه رك للعيون الباكيه  
 من مضيات جوع تسمى وتصيح طاويه  
 من يرتجى لدفاع كره ب ملامة هي ماهيه  
 من للبطون الجائعات ت وللجسوم العاربه  
 ألقىت أخبارا إلي يك من الرعيّة شافيه

ولم يكن أبو العتاهية يقرب من العامة بزهده وما صور فيه من بؤسها وأوصا بها فحسب ، بل كان يقرب منها أيضًا بأسلوبه الذي كان يشتقه اشتقاقًا من لغة الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد كما ابتعد عن العجمة ، ولكنه بعد ذلك أجراه في مستوى أفراد الشعب ، بحيث لا يعزّ على أحد منهم أن يفهمه ، ويؤثّر عنه أنه كان يقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء . . . والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه<sup>(٢)</sup> » ومن الحق أنه ظلت في أسلوب شعره منذ فاتحة حياته السهولة ، حتى إذا أخذ في الزهد ضاعفها وأكدها تأكيداً شديداً

(١) الديوان ص ٣٠٣ .

(٢) أغاني ٤ / ٧٠ .

حتى لتكاد تسقط منه بعض مقطوعاته ، لما يجرى فيها من ضعف ، وحتى ليقول صاحب الأغاني إنه كثير الساقط المردول<sup>(١)</sup> . وينبغي أن لا نبالغ مبالغة أبي الفرج ، فقد كانت لأبي العتاهية أذن موسيقية دقيقة وقلما نجد عنده قافية غير متمكنة في موضعها أو كلمة لم تحلّ في نصابها ، إذ كان الشعر عنده طبعاً أو كالطبع<sup>(٢)</sup> ، حتى كان لا يسمع كلمة من مناد على بضاعة أو من بعض جلسائه تصلح أن تكون شطراً لبيت حتى يبادر بصنع الشطر الثاني تَوّاً على البديهة<sup>(٣)</sup> . وبلغ من اقتداره على صنع الشعر وسهولته على لسانه أن اخترع — كما أسلفنا في الفصل السابق — أوزاناً جديدة لا تدخل في بحور الشعر المستعملة ، وكان إذا رجع في ذلك وقيل له إن أشعارك لا تدخل في عروض الخليل قال : أنا أكبر من العروض<sup>(٤)</sup> يريد أن الشعر يجرى على لسانه قبل أن يضع الخليل عروضه ، وهو لذلك أسن منه ، ولا نشك في أن ديوانه أو وصلنا كاملاً لاستخرجنا منه أوزاناً كثيرة طريفة ابتكرها ابتكاراً ، غير أن نَبَعَ الشعر عنده كان غزيراً ، فكثُر ما نظمه ولم تستطع الأجيال التالية أن تحمله تماماً لكثرتة .

## ٤

مسلم<sup>(٥)</sup> بن الوليد

وُلِدَ في الكوفة حوالي سنة ١٤٠ للهجرة لأب كان يشتغل بالحياكة ، واختلفت المصادر القديمة في تصحيح نسبته ، فقيل إنه خزرجي من الأنصار ، وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القول الصحيح ، ويشهد له أنه كان من الصنّاع ، ولم يكن العرب يُقبَلون على الصناعات حتى هذا التاريخ . وفي أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً ، وأغلب الظن أنه كان من موالي الفرس ، ووُلِدَ قبل

والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٩٦/١٣ وترجمته بالأغاني الملحقه بديوانه وكذلك بقية المصادر الملحقه بنشرة سامي اندهان للديوان (طبع دار المعارف) وراجع مسلم بن الوليد لفؤاد قرزى (طبع بيروت) .

(١) أغاني ٢/٤ وانظر رأي الأصمى ص ٤٠ .  
(٢) أغاني ١٣/٤ والبيان والتبيين ١/١١٥ .  
(٣) أغاني ٣٩/٤ والحويان ١٣٧/٥ .  
(٤) أغاني (دار الكتب) ١٣/٤ .  
(٥) انظر في أخبار مسلم وأشعاره الشعر

مسلم ابنُ كان يكبره يسمى سليمان ، وكان كفيفاً ، كما كان شاعراً مُجيداً ، ويُجمَع الرواة على أنه كان زنديقاً وأن الذي لقنَه زندقته بشار<sup>(١)</sup> ، ومن قول الجاحظ فيه : « كان من مستجبي بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غلام ، فقَبِلَ عنه ذلك الدين<sup>(٢)</sup> » . وفي اختلافه إليه ما يدلُّ على أنه نزل البصرة ، ويظهر أنه نزلها مع أبيه ، إذ كان لا يزال غلاماً ، وكان ضريراً ، يحتاج إلى من يعينه ويعنونه ، وفي ديوان مسلم قصيدة طويلة<sup>(٣)</sup> يذكر فيها مقامه أولاً بالكوفة ، ثم نزوله البصرة وذكرياته السعيدة بها ، وذكريات الحب واللهم .

وفي ذلك كله ما يدل على أن مسلماً نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة ، ولا نرتاب في أنه كان يختلف مع أخيه سليمان إلى بشار ، وأن ذلك أتاح له أن يحمل عنه شعره ، ولكنه لم يحمل عنه زندقته ، كما حملها أخوه ، إذ لم يُعرف عنه شيء من الزندقة . ويظهر أنه مضى يثقف نفسه بكل معارف عصره وأنه عكف على قراءة كثير من الآداب المترجمة ، ونراه يصرح بأن قوله :

دَلَّتْ عَلَى عَيْبِهَا الدُّنْيَا وَصَدَّقَهَا مَا اسْتَرْجَع الدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي  
 قد أخذ معناه من التوراة<sup>(٤)</sup> . وفي أشعاره من التعمق في الأفكار ما يدل دلالة قاطعة على أنه اختلف إلى متكلمى البصرة وحذق على أيديهم النظر والتفكير وتصحيح المعاني والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفية . وأيضاً في أشعاره ما يدل دلالة بيّنة على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهلي والإسلامي ، فقد أُشْرِبَتْهُ روحه لا بصياغاته فحسب ، بل أيضاً بجميع معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية . والتحمت في نفسه هذه الثقافة بشعر بشار ومعاصريه من شعراء الجليل العباسي الأول التحاماً قوياً خصباً .

ويظهر أن مواهبه الشعرية استيقظت في نفسه مبكرة ، وليس بين أيدينا أخبار

(٢) الحيوان ٤/١٩٥ .  
 (٣) راجع الديوان ( طبع دار المعارف ) ص ٢٢٥ .  
 (٤) انظر ترجمة أبي الفرج لمسلم الملحق بديوانه ص ٣٧٣ .

(١) انظر الحيوان ٤/١٩٥ ومعجم الأدباء ٢٥٥/١١ ونكت الهميان ص ١٦١ وفي الكتابين الأخيرين أنه ابن مسلم وهو خطأ ، انظر في الحيوان والبيان والتبيين ٣/٢٠٢ حيث ينص الجاحظ على أنه أخوه ، وقد توفى قبله بنحو ثلاثين عاماً سنة ١٧٩ للهجرة .

واضحة عن حياته في موطنه الأول الكوفة ولا في البصرة ، غير أننا نراه يصطدم بشاعر بصرى يسمى ابن قُنْبُر ، عُنِيَ بِأَن يَسْرُدَّ عَلَى الطرماح الشاعر الأموى الخارجى أهاجيه في قبيلته تمم ، وأن يهجو طيئاً والأزد وغيرهما من قبائل اليمن التى انتصر لها الطرماح ، وامتعض مسلم لمواليه من الأنصار الأزديين اليمانيين ، وزجَّ بنفسه معه في معركة هجاء عنيفة ، وكان أقوى منه شاعرية ، فهتكه ومزقه واضطره إلى أن يمسك عن مناقضته .

وجذبت بغداد مسلماً فهاجر إليها ، لعل بضاعته تروج فيها ويَحْظَى بِمَاحِظَى بِمَاحِظَى بِمَاحِظَى به أعلام الشعراء في عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد . ولا يُعْرَفُ بالضبط تاريخ هجرته ، ولكن في أخباره أنه هاجر إليها مع أخيه سليمان وانقطعا لمديح يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وقد توفي سليمان سنة ١٧٩ للهجرة . وفي أخبار مسلم أنه كان يمدح مَن دون الخليفة ولا يطمح إليه ، فكان يقول : أرى نفسى تذوب حشرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء مَن لا يوازينى في أدب . ويدل ذلك على أنه ظل في بغداد مدة قصرت همته فيها عن لقاء الرشيد ثم لقيه ، ويقال إن منصور بن يزيد الحميرى خال الرشيد هو الذى أوصله إليه . وتلتقى أخبار لقائه له بمدائحه ليزيد بن مزيد وقضائه على ثورة الوليد بن طريف الخارجى في سنة ١٧٩ للهجرة ، ومن حينئذ لمع اسمه وعلا نجمه بين شعراء بغداد ويظهر أن صلةً انعقدت بينه وبين البرامكة ، فقد كان وثيق الصلة بمحمد بن منصور كاتبهم ، وله فيهم مدائح مختلفة .

وفي ديوانه قصائد أربع في مديح الرشيد ، ويظهر أن كثيراً من مدائحه فيه سقط من يد الزمن ، ويقال إنه لما أنشده لاميته فيه ، وأورد على سمعه قوله في مقدمتها :

هَلِ الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ أَرُوحَ مَعَ الصَّبَا وَأَغْدُو صَرِيحَ الرَّاحِ وَالْأَعْيُنُ النَّجْلِ (١)

قال له : أنت صريح الغوانى ، فلصقت به الكلمة ، وأصبحت لقباله لا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ (٢) . ونراه دائماً ينوه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله (٣) :

(١) نجل : جمع نجلاء وهى الواسمة . الراح :  
(٢) ابن المعتز ص ٢٣٥ والديوان ص ٤٣ .  
(٣) الديوان ص ٢٥٤ .

خليفةَ اللهِ إنَّ النَّصْرَ مُقْتَصِرٌ عليكُ مُذْ أَنْتَ مَبْلُوءٌ وَمُخْتَبِرٌ  
أعددتَ للحربِ سيفاً من بنى مطرٍ يمضى بأمرِكَ مخلوعاً له العُدْرُ<sup>(١)</sup>  
لاقى بنو قَيْصَرٍ لما هممتَ بهم مثل الذى سوف تلقى مثله الخَزْرُ  
لقد بعثتَ إلى خاقانَ جائحةً خَرَقَاءَ حِصَاءَ لا تَبْقَى ولا تَذَرُ  
أظْلَهُمُ منك رُعبٌ واقفٌ بهمٍ حتى يوافقَ فيهم رَأْيَكَ القَدْرُ

وهو يريد بسيف بنى مطر يزيد بن يزيد الشيباني ، وقد مضى يتحدث عن انتصارات الرشيد على الروم وظفروه بخاقان ملك الترك ، وكان شخص إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش ضخيم سنة ١٧٨ للهجرة ، فأسره واستباح عسكره وغنم أمواله<sup>(٢)</sup> . وفى أخباره أن الرشيد وصله صلوات كثيرة ، حتى ليقال إنه وصله مرة بمائتى ألف درهم<sup>(٣)</sup> . وتقرن أخباره إعجاب الرشيد به بإعجابه بمدحيه لقائده يزيد ابن يزيد الشيباني ، وهو إعجاب نظن أن السياسة تتداخل فيه ، فقد كان كل شىء فى الحكم بيد البرامكة الإيرانيين ، وأكبَّ عليهم الشعراء بمدائحهم إكباباً جعل الخليفة ينفس عليهم ذلك ، وربما كان مما يؤذيه أنه لا يجد لقادته من العرب الخُلص من يمدحهم وينوه بهم ، وكان البرامكة يقفون فى وجه بعض هؤلاء القادة ويحاولون إبعادهم عن الخليفة ، وكان يُضطرَّ للنزول على إرادتهم لعلو نفوذهم ، وكان ممن صنعوا به ذلك يزيد بن يزيد ، فإنه لما قضى على ثورة الوليد ابن طريف وانصرف بالظفر حُجِبَ برأيهم وجاراهم الرشيد فأظهر سخطه عليه ، فقال : « وحقَّ أمير المؤمنين لأصيفنَّ وأشتونَّ على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ، فلما رآه ضحك وسرَّ وأقبل يصيح : مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم<sup>(٤)</sup> » وأقبل الشعراء يمدحونه ، ومدحه مسلم بقصيدته المشهورة<sup>(٥)</sup> :

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .  
(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .  
(٣) انظر ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان  
(٤) أغاني ( دار الكتب ) ٩٦/١٢ وما بعدها .  
(٥) هى أولى قصائد الديوان .

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .  
(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .  
(٣) انظر ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان

أَجْرَزْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ وَشَمَّرْتُ هِمَمُ الْعَدَالِ فِي الْعَدَلِ (١)

وارتفعت إلى سمع الرشيد ، فطار سروراً بمدح قائده وبمادحه . ومن حيثند توثقت الصلة بين الشاعر والخليفة من جهة وبينه وبين القائد من جهة ثانية ، وأخذ يزيد يُغَدِّق عليه نواله الغمَّسُ ، حتى ليقال إنه أعطاه في إحدى وفاداته عليه مائة وتسعين ألف درهم ، وأقطعته إقطاعات تُغَلُّ مائتي ألف درهم . ولما ولَّى الرشيد يزيد أرمينية وآذربيجان سنة ١٨٣ للهجرة صحبه وظل معه حتى توفي سنة ١٨٥ . وقد احتفظ الديوان بقصيدته السابقة فيه وقصيدة ثانية ميمية ومقطوعة قصيرة ، وهو في القصيدة الأولى ينوّه بانتصاراته في حروب الروم وظفره بيوسف البسرم الثائر في خراسان لعهد المهدي ثم الوليد بن طريف الخارجي الثائر بالجزيرة لعهد الرشيد . ونراه في القصيدة الثانية وهي التي يستهلها بقوله (٢) :

طَيْفَ الْخِيَالِ حَمِدْنَا مِنْكَ إِلْمَامَا دَاوَيْتَ سُقْمًا وَقَدْ هَيَّجْتَ أَسْقَامَا

يتغنّى بانتصاره على الوليد بن طريف ويشيد بشجاعته وإقدامه .

وكان منذ نزوله بغداد بمدح محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وكان خليفة الفضل بن جعفر البرمكي بباب الرشيد ، وكان يسمى فتي العسكر لبلائه في الحروب ، ولمسلم فيه قصيدتان وبعض مقطوعات منثورة في ديوانه ، وهو في إحدى قصيدتيه ، وهي التي افتتحها بقوله (٣) :

عَاَصَى الشَّبَابَ فَرَاخَ غَيْرِ مَفْنَدٍ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلُّدٍ (٤)

يشيد طويلاً بانتصاره في بعض حروب الروم وفتكه بأحد بطارقتهم ، كما ينوّه بانتصارات أبيه « منصور » على خوارج القيروان ، ولعله كان في عداد جيش يزيد بن حاتم المهلبى الذى فتك بهم فتكاً ذريعاً لعهد الخليفة المنصور (٥) . وقد وصله محمد بن منصور بن زياد بالبرامكة ، وفي ديوانه بيتان في مديح يحيى ، وقصيدة ومقطوعة في مديح ابنه جعفر ، وهو في القصيدة يشير إلى قضائه على فتنة

(٣) الديوان ص ٢٣٠ .

(٤) مفند : ملوم .

(٥) النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٠ .

(١) أجرت حبل خليع كناية عن تركه

يصنع ما يشاء .

(٢) الديوان ص ٦١ .

بالشام سيره إليها الرشيد سنة ١٨٠ للهجرة<sup>(١)</sup> ، يقول<sup>(٢)</sup> :

أعطى المقادة أهل الشام حين عُشُوا من جَعْفَرٍ بِهَنَاتٍ مَالَهَا جَوْلٌ  
وأبدع قصائده في البرامكة لاميته في الفضل بن جعفر ، وهي تُعَدُّ من  
روائعه<sup>(٣)</sup> وإذا صح أن سماه إسماعيل في قصيدته : « وإنى وإسماعيل يوم وداعه »<sup>(٤)</sup>  
من البرامكة كانت هي الأخرى من دُرره فيهم . ونراه بعد وفاة يزيد بن مزيد  
يتصل بداود بن يزيد المهلبى أحد قواد الرشيد وولاته على إفريقية ، وقد ولاه السند  
سنة ١٨٤ فرمَّ ما فيها من شعث بين اليمينية والنزارية ، وفتح كثيراً من مدنها ،  
ويقال إنه « كان يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً فيقصده ذلك اليوم وينشدونه  
مدائحهم ، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته فيه<sup>(٥)</sup> :

لَا تَدْعُ بِي الشُّوقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودٍ نَهَى النَّهْيَ عَنِ هَوَى البَيْضِ الرَّعَادِيدِ<sup>(٦)</sup>  
فلما أنشدها بين يديه أمر له بعشرة آلاف درهم وأمر لمسلم بمائة ألف ، وهي  
إحدى فرائده ، ونراه فيها يتحدث عن انتصاراته في « كيرمان » وسجستان ومن  
فتك بهم من الخوارج والثوار ، وكيف دانت له السند واستقامت أمورها خير  
استقامة .

ونرى مسلماً بمدح جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة في  
عهد الرشيد ، وفي مقدمتهم يعقوب<sup>(٧)</sup> بن سعدان ، وكان سعدان كاتب زُبَيْدَةَ<sup>(٨)</sup>  
زوج الرشيد ، وسهل<sup>(٩)</sup> بن الصباح المدائني ، وكان من مقدّمى رجال الدولة  
وأجوادهم<sup>(١٠)</sup> ، والحسن<sup>(١١)</sup> بن عمران الطائي والى الرشيد على دمشق<sup>(١٢)</sup> ، وزيد  
ابن مسلم الحنفي أحد قواده ، وقد نوه به وبكرمه وشجاعته وبلائه في الحروب في

- الأكفال .
- (١) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٤٥٧/٦ .
- (٢) ٤٦٦ .
- (٣) الديوان ص ٢٥٠ .
- (٤) الديوان ص ٢٦٠ .
- (٥) الديوان ص ٣٣٢ وقارن بسبط اللال .
- (٦) ٣٢٧ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٨٠ .
- (٧) الديوان ص ١٥١ .
- (٨) معمود : عاشق . الرعايد : المرتجات
- (٩) الديوان ص ١١٤ ، ٣٣٦ .
- (١٠) الجهشيارى ص ٢٥٦ .
- (١١) الديوان ص ٢٤ وانظر ص ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ .
- (١٢) الجهشيارى ص ١٦٥ وما بعدها .
- (١٣) الديوان ص ٢٥٧ .
- (١٤) زهر الآداب ٨٢/٤ .

قصيدتين<sup>(١)</sup> بديعتين . ونمضى معه إلى عصر الأمين ففراه بمدحه بقصيدته<sup>(٢)</sup> :

شغلي عن الدار أبكيها وأرثيها إذا خلت من حبيب لي مغانيها  
وفراه يشيد بانتصاراته على أعدائه في السرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار  
هرثمة بن أعين على رافع بن الليث الثائر بسمرقند سنة ١٩٤<sup>(٣)</sup> . ولا يابث الأمين  
أن ينقض عقد ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه  
موسى مما أدّى إلى تطاحن الأخوين وظفر المأمون بأخيه على نحو ما مرّ بنا في غير  
هذا الموضع . ويولّى مسلم وجهه شطر مرو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل .  
وتلقّاه الفضل بترحيب عظيم ، إذ كان من ندمائه قبل وزارته للمأمون<sup>(٤)</sup> ، ونظن  
ظناً أن الصلة توثقت بينهما منذ كان مسلم يغدو ويروح على البرامكة ، وخاصة  
على الفضل بن جعفر البرمكي فقد كان ابن سهل يخدمه أولاً ثم التحق بخدمة  
المأمون . ولم يكده مسلم يمثل بين يديه حتى أنشده قوله فيه :

لو نطقَ الناسُ أو أثنوا بعلمهم ونبأت عن معالي دهرِك الكُتبُ  
لم يبلغوا منك أدنى ما تمّت به إذا تفاخرتِ الأملاك وانتسبوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم<sup>(٥)</sup> ، وقد سقطت من  
ديوانه ، كما سقطت قصيدة كافية له في المأمون لم يبق منها إلا هذان البيتان<sup>(٦)</sup> :

وردت على خاقان خيلك بعدما كره الطعان وقد أطلن عراكا  
حتى وردن وراء « شاش » بمنزل تركت به نقلاً له الأتراكا

وأيضاً فقد سقطت له قصيدة ثالثة في الفضل بن سهل لم يبق منها إلا بيت  
واحد<sup>(٧)</sup> ، وحظي عنده حظوة كبيرة جعلته يولّى جرجان أو بعض ضياعها  
أو بتريدها أو مظالمها أو ضياع أصبهان على اختلاف في الروايات<sup>(٨)</sup> . ولعل

(١) الديوان ص ١٧٧ ، ٢٠٠ .  
(٢) الديوان ص ٢١٦ .  
(٣) اليقوي ٣/ ١٦٥ .  
(٤) ابن الطقطقي ص ١٦٦ .  
(٥) ترجمة مسلم في الأغاني الملحقه بالديوان  
(٦) الديوان ص ٣٨٠ .  
(٧) الديوان ص ٣٣١ .  
(٨) الديوان ص ٣٠٧ .  
(٩) انظر ملحقات الديوان ص ٣٥٣ ،  
٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ وما بعدها .

أولها أكثرها صحة ، ويقال إنه كان يربح ألف ألف درهم في العام ، وما زال يجرجان حتى لبى داعى ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

وواضح أن مسلماً أخذ يعيش في هناة ورغد منذ أواخر العقد الثامن من القرن الثاني ، فقد انهالت عليه الدنيا وأخذ يظفر بجوائز ضخمة ، وما زال يرقى به شعره حتى تولى جرّجان . وفي أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهب والطرب ، ويفسح في حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن ينغمس في ذلك انغماس أبي نواس وأخذانه ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته . وكل شيء يؤكد أن حياته في أسرته كانت تجرى رخاء ، فقد رُزق ابنة وولدين هما مخلد وخارجة ، وسبقته زوجته إلى دارالبقاء ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ولعل في حزنه عليها ما يدل على أنها كانت له شديدة الوفاء والإخلاص .

وفما قدمنا ما يدل دلالة بيّنة على أن ديوان مسلم لم يحتفظ بكثير من قصائده ، فأشعاره في المأمون والفضل بن سهل مفقودة كما أسلفنا ، إلا البيت بعد البيت ، وحتى من رويت له فيهم بعض قصائده يظهر أن وراءها قصائد له فيهم سقطت من يد الزمن . وما يجعلنا نقطع بذلك أننا نجد ابن المعتز يشيد بلاميته السائرة التي أنشدها الرشيد والتي لقبه كما مر بنا من أجل أحد أبياتها باسم « صريع الغواني » ويقول إن الرشيد كتبها بماء الذهب<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك لم يبق منها في الديوان إلا مقدمتها ، ويصفها ابن المعتز بأنها « مشهورة سائرة جيدة عجيبة » . وكأن ديوانه مختارات تتضمن بعض قصائده وبعض مقطوعاته . ويظهر أن العبث بالديوان قديم ، حتى ليروى بعض الرواة أن مسلماً تغافل راويته يوماً ويده دفتر ديوانه ، فحذف به في بحر ! ولهذا قلّ شعره ولم يبق منه بأيدي الناس إلا ما رواه بعض معاصريه العراقيين وإلا ما كان في أيدي الممدوحين من مدائحه<sup>(٢)</sup> . وربما كان هو نفسه أول مَنْ حوّل ديوانه إلى مختارات ، إذ كان شديد الحساب لنفسه ، وكأنه أسقط كثيراً من أشعاره ، حتى لا يبقى له في أيدي الناس إلا عيون شعره .

ولعل القرن الثاني للهجرة لم يعرف شاعراً جهد نفسه في صنع الشعر ، كما

(١) ابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٢) انظر ترجمة الأغاني الملحق بالديوان ص ٣٧٤ .

جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلاميه بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثل تمثلاً لا يقل عنه عمقاً ولا دقة لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه . وبذلك التأم القديم والحديد في نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية في المزج بينهما ، مفكراً في كل التراث الشعري الذي سبقه وناقداً ومحللاً مستنبطاً . وهدهد ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف في وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكلة وتصوير وأن يجعلها أساساً في صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو الذي أعطاه لقبه (١) » . وحقاً نجده مبنوياً في أشعار بشار وأبي نواس وأضرابهما من سابقيه ومعاصريه ، ولكنه يأتي عندهم في الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنه يتخذ وكثده وغايته من عمل الشعر . وقد حاول ابن المعتز في كتابه « البديع » أن يرد البديع إلى الشعر القديم والقرآن الكريم ، فهو عربي الأصول . ولا يمكن لأحد أن يدعي أن مسلماً حين استظهر مذهب البديع والتصنيع في شعره لم يعتمد على أصول تزكّيه ، فقد كان منبثاً في العصور السابقة له ، إذ كان الجاهليون والإسلاميون يأتون به في خفة ، ثم عني به العباسيون منذ بشار ، حتى ليحمله الجاحظ زعيم فن البديع ، وبه اقتدى مسلم وحذا حذوه (٢) . ولا نستطيع أن نجرى مع الجاحظ في رده مذهب البديع إلى بشار ، لأنه لم يقصر فنه عليه ، ولم يتخذ مذهباً يعيش له ويعيش به ، أما مسلم فإنه اتخذ مذهباً له ، وفرضه على شعره فرضاً منحازاً إليه واقفاً نفسه على التفكير فيه تفكيراً متصلاً معتمداً على حس دقيق وشعور رقيق وعقل مثقف ثقافة ممتازة .

وليس ذلك فحسب فقد أشرّبت روح مسلم صياغة الشعر القديم بأبنتيها الجزلة الضخمة الناصعة ، وتحولت إليه هذه الصياغة بكل ما يجري فيها من روعة وجمال ، فإذا أساليبه معتدلة مستوية ليس فيها أي عوج أو انحراف إنما فيها التناسق الكامل الذي يقن قارئه بدقته وباتساع جنباته لبيث فيه مسلم بديعه ، ولينمي مع روح عصره ، وليصب في نفسه وعقله وخياله ، وهو في ذلك يتكلف

(١) ترجمة الأغاني الملحقه بالديوان ص (٢) البيان والتبيين ١/١٥١ .

كل ما يستطيع من جهد عنيف وعناء شاق ، مراجعاً نفسه ومتأنياً محتاطاً ، حتى يبلغ كل ما يريد من امتياز على أقرانه . وأعله لم يمنح موضوعاً عنايته كما منح المديح وهو فيه يلائم ملاءمة دقيقة بين ماضى الشعر وحاضره ، فيستنفذ ما قاله القدماء فى وصف الصحراء والنوق والتشبيب ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات فى أشعارهم وما أضافوا إليها من وصف الحمر ، أو وصف السفن فى طريقهم إلى مدوحهم . حتى إذا خلص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى عرض جديد رائع يصور زاده الأصيل من التراث الفنى مضيفاً كثيراً من المعانى والصور البديعة ، وأقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة العجيبة فى يزيد بن مزيد وتصوير فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق وما يتسم به من مروءة كاملة :

لولا يزيد لأضحى الملك مطرَحاً  
يرغمى الوغى وشهاب الموت فى يده  
موفى على مهج فى يوم ذى رهج  
لا يرخل الناس إلا نحو حُجرتيه  
يكسو السيوف دماء الناكثين به  
قد عود الطير عادات وثقن بها  
تراه فى الأمن فى درع مضاعفة  
لا يعقب الطيب خديته ومفرقه  
أومائل السمك أو مسترخى الطول<sup>(١)</sup>  
يرمى القوارس والأبطال بالشعل<sup>(٢)</sup>  
كانه أجل يسعى إلى أملى<sup>(٣)</sup>  
كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل<sup>(٤)</sup>  
ويجعل الهام تيجان القنا الذبل<sup>(٥)</sup>  
فهن يتبعنه فى كل مرتحل  
لا يأمن الدهر - أن يدعى على عجل  
ولا يمسح عينيه من الكحل<sup>(٦)</sup>

فإنك تشعر بضخامة البناء وقوة الحيك وأن مسلماً يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوء ولا قصور وإنما ضبط وإحكام . وهو يستمد صورته فى البيت

الحرب .  
(٤) يريد أن الطرق تلتقى براكبيها عند المديح بلجوده النمر .  
(٥) الهام : الروموس . الذبل : الرقيقة الحادة .  
(٦) لا يمسح عينيه من الكحل : لا يكتحل .

(١) مطرَحاً : مخذولاً . الطول : الحبال .  
وقد ضرب السمك والطول مثلاً لاستقامة الأمر كاستقامة الخيمة حين يقوم عمودها وتشد حبالها .  
(٢) شهاب الموت : السيف . وأراد بالشمل اللهب المتساقط من الشهاب .  
(٣) المهج : الأرواح . الراجح : غبار

الأول من البادية ونخيامها وما يُطَوَى فيها من جبال وأعمدة . وطالما شبه الشعراء السيوف بالشهب ، غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك تشبيهاً بشعل النار وهي في يد يزيد يرمى بها يميناً وشمالاً . ومضى في البيت الثالث يضيف إلى تصويره السابق جناسين واضحين . والتمس صورة سبقه إليها زهير في بيته الرابع ، إذ يقول في مديح صاحبه هرم بن سنان :

قد جعل المبتغون الخيرَ في حَرَمِ السائلون إلى أبوابه طُرُقاً  
ومضى يصور فتكه بالأبطال تصويراً بديعاً في بيته الخامس ، وكان القدماء يذكرون صحبة الطير للجيش حين يصفونها كناية عما ستجد من أشلاء قتلاها ، فاستغل ذلك في بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً في رحلاته واثقة بما سيميرها به ، حتى أصبح ذلك من عاداتها فهي دائماً مرفوفة فوقه . ومثله في البيتين السابع والثامن شجاعاً تام الشجاعة حتى لا يفارقه درعه في أوقات أمنه وسلمه ، وحتى لا يتعطر شأن المترفين اللاهين فعطره شجاعته وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال . وقرأ له هذه القطعة من مديح داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وتصويره فيها لبسالته وبطولته :

موحدُ الرأى تينشقُ الظنون له عن كل ملتبسٍ منها ومعقود<sup>(١)</sup>  
كالليثِ بل مثله الليثُ الهُصور إذا غنى الحديد غناءً غيرَ تغريد  
يلقى المنيةَ في أمثالِ عُدتها كالسَّيلِ يقذفُ جُلموداً بجمود  
يجود بالنفس إذ صنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

فإنك تحس قوة البناء ودقة التعبير وروعة التصوير ، فداود محكم الرأى إذا فكر في شيء انكشف له غامضه ومتشابهه ، وهو كالليث في انقضاذه على فريسته ، بل الليث هو الذى يحاكيه ويتخذة قدوته ، وإن بسالته لتتحول إلى ما يشبه موجاً لا يزال يسقطه على الأبطال موجة في إثر موجة كالسيل يدفع جلموداً بجمود . وإن

(١) ملتبس : مشته . معقود : غامض .

شجاعته لضرب رائع من جوده وكأتما الجود شريعته حتى بروحه الزكية . ومن رائع مديحه قوله في الفضل بن جعفر البرمكي :

تَسَاقَطُ يُمْنَاهُ النَّدَى وَشِمَالَهُ الـ رَدَى وَعَيُونَ الْقَوْلِ مَنَظْفَقَهُ الْفَصْلُ<sup>(١)</sup>  
عَجُولٌ إِلَى مَا يُودِعُ الْحَمْدَ مَالُهُ يَعُدُّ النَّدَى غُنْمًا إِذَا اغْتَنِمَ الْبُخْلُ  
بِكَفِّ أَبِي الْعَبَّاسِ يُسْتَمَطَّرُ الْغِنَى وَتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى وَيَسْتَرَعِفُ النَّصْلُ<sup>(٢)</sup>

والأبيات من طراز بنائه الضخم ، وهي متينة السبك ، قوية الحليك ، وانظر في البيت الأول كيف صور تصويراً بديعاً كرم الفضل وشجاعته وبلاغة بيانه ، وقد طابق في البيت الثاني بين الكرم والبخل ، وعاد في البيت الثالث إلى تركيزه الشديد وتجميعه المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، مع قوة تجسيمها وتجسيدها . ومن بارع مديحه قوله في إسماعيل البرمكي :

وإني وإسماعيلَ يوم وداعِهِ لكَالغِئْمِ يَوْمِ الرَّوْعِ فَارِقَهُ النَّصْلُ  
فَإِنْ أَغَشَّ قَوْمًا بَعْدَهُ أَوْ أَزْرَهُمْ فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحَلُّ<sup>(٣)</sup>

يقول ابن المعتز : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله في ألف سنة<sup>(٤)</sup> » . وفي نفس هذه القوالب القوية كان يصوغ مرثيه على شاكلة قوله في رثاء يزيد بن يزيد :

نَفَضْتُ بِكَ الْأَمَالَ أَحْلَاسَ الْغِنَى وَاسْتَرْجَعْتُ نَزَاعَهَا الْأَمْصَارُ<sup>(٥)</sup>  
أَجَلٌ تَنَافَسَهُ الْجِمَامُ وَحَفْرَةٌ نَفِيسَتْ عَلَيْهَا وَجْهَكَ الْأَحْفَارُ<sup>(٦)</sup>  
فَازْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ أَتْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوَاعِرُ<sup>(٧)</sup>

والصورة في البيت الأول دقيقة ، فقد أراد أن يصور قعود المعتفين والسائلين عن الرحلة في طلب نواله ، فقال إن الآمال نفضت أحلاس الغنى ، أى أنها لم تعد

(٥) أحلاس جمع حلس وهو كساء يوضع

على ظهر البعير تحت الرحل . نزاعها : الذين

ينزعون إليه وينتربون عن أوطانهم .

(٦) الحمام : الموت .

(٧) المزنة : السحابة المطرة .

(١) الندى : الكرم . الردى : الموت .

(٢) يسترعف : يقطر دماً . النصل حد السيف .

(٣) الأنس : بفتح الهزرة كالأنس بضمها ،

المحل : الجذب .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٦ .

تهبِّي الإبل للارتحال نحوه . وجعل في البيت الثاني الموت والقبر يتنافسان عليه ، كل يريد أن يحوزه إليه ، ولم يلبث أن جعل جميع القبور تنفس على قبره جسده الغالي . ودعا له متمثلاً جوده الذي عمَّ به الناس كما تعم السحابة بوابلها السهل والوعر . ومن دقائق معانيه في الرثاء قوله :

ومخادعِ السمعِ النَّعِيِّ ودونه خَطْبُ أَلَمٍ بَصَادِقٍ لَا يَخَدَعُ

وهو يصور في البيت ذبول الصديق حين يأتيه نعي صديقه فيفزع إلى تكذيبه ، ثم يثوب إلى رشده . وقد بدأ حياته بنقائص في الهجاء ناقض بها ابن قنبر ، وهو في هذه النقائص يصدر عن روح النقائص القديمة عند جرير والفرزدق وما يُطَوَّى فيها من عصبيات ، ويتكافآن فلا يعود إلى هذا النمط القديم ، بل يأخذ في النمط المستحدث الذي وصفناه في غير هذا الموضع والذي كان يجري في أبيات قصيرة تشبه السهام المسمومة ، كقوله في دعبل تلميذه وقد فسد ما بينهما :

أما الهجاءُ فدقَّ عِرْضُكَ دونه والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ  
فأذهبُ فأنتَ طليقُ عِرْضِكَ إنه عِرْضُ عَزَزْتَ به وأنتَ ذليلُ

وتُروَى له أبيات في هجاء يزيد بن يزيد ، وأكبر الظن أنها منتحلة أو لعلها أضيفت إليه خطأ ، ويظهر أنه مدح موسى بن خازم بن خزيمه وسعيد بن سلم ابن قتيبة ، فلم يبرأه ، واستشاط غضباً ، فرماهما بسهام لاذعة من هجاء مرير ، على شاكلة قوله في موسى :

لو أَنَّ كَنَزَ البِلَادِ فِي يَدِهِ لَمْ يَدَعِ الإِعْتِذَارَ بِالْعُدْمِ<sup>(١)</sup>  
وقوله في سعيد :

وَأَحْبَبْتُ مِنْ حُبِّهَا البَاخِلَ بَيْنَ حَتَّى وَمِمْتُ ابْنَ سَلْمٍ سَعِيداً<sup>(٢)</sup>  
إِذَا سَيْلٌ عُرْفًا كَسَا وَجْهَهُ ثِيَابًا مِنَ اللُّومِ صُفْرًا وَسوداً<sup>(٣)</sup>  
وكان لا يزال يدقق في معاني الهجاء حتى يقع على معنى نادر يروع سامعيه ،

(٢) ومقت : أحببت .

(١) العدم : فقدان المال .

(٣) سَيْلٌ : مثل ، خفف . العرف : المعروف والحدود .

من مثل قوله يهجو رجلا بقبح وجهه وخلقه :

قُبِحَتْ مَنَازِرُهُ فَحِينَ خَبَرْتُهُ حَسُنَتْ مَنَازِرُهُ لِقُبْحِ الْمَخْبِرِ

وبنفس هذا النسيج من الصياغة وهذه الدقة في المعاني والصور كان مسلم ينظم في الحب والخمر ، سواء أودعها مقدمات مدائحه أو أفردهما ببعض المقطوعات ، وهو يصور منزعه فيهما ومتعته بهما إذ يقول :

وما العيش إلا أن أبيتَ موسداً - صريعَ مُدامٍ - كفَّ أخوراً كَحَلِّ (١)

وكان لا يزال يبتى فيهما على نفسه ولا يزال يحتفظ بغير قليل من كرامته . وهو في غزله لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه ونيران شوقه وحببه الذى يلذع فؤاده من مثل قوله :

إن كنتِ تَسْقِينِ غيرَ الرَّاحِ فاسقيني كَأَسَأُ أَلذُّهَا مِنْ فَيْكِ تَشْفِينِي  
عَيْنَاكِ رَاحِي ، وَرِيحَانِي حَدِيثُكَ لِي وَلُونُ خَدَيْكَ لُونُ الْوَرْدِ يَكْفِينِي  
وقوله :

ولما تلاقينا قَضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بِوَجْهِ كَوْجِهِ الشَّمْسُ مَا إِنَّ لَهُ مِثْلُ  
وَخَالَ كَخَالَ الْبَدْرِ فِي وَجْهِ مِثْلِهِ لَقَيْنَا الْمُنَى فِيهِ فَحَاجَزَنَا الْبَدْلُ  
وقوله :

وَأَقْسَمْتُ أَنْسَى الدَّاعِيَاتِ إِلَى الصَّبَا وَقَدْ فَاجَأَتْهَا الْعَيْنُ وَالسَّتْرُ وَاقِعُ  
فَغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثِمَارَ نُحُورِهَا كَأَيْدَى الْأَسَارَى أَنْقَلَتْهَا الْجَوَامِعُ (٢)

والخمر عند مسلم تأتي غالباً في مقدمات مدائحه ، وفيها يحاول أن يستنبط المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة من شاكلة قوله :

وَمَانِحَةٌ شُرَابُهَا الْمُلْكُ قَهْوَةٌ مَجُوسِيَّةٌ الْأَنْسَابُ مَسْلَمَةُ الْبَعْلِ

(١) المدام : الخمر .

(٢) الجوامع : الأغلال والقيود .

قد استودعتُ دَنَّا لها فهو قائمٌ بها شَفَقًا بين الكروم على رِجْلِ  
شَقَقْنَا لها في الدَّنَّ عَيْنًا فَأَسْبَلَتْ كَأَلْسِنَةِ الْحَيَاتِ خَافَتْ مِنَ الْقَتْلِ (١)

وقد جعلها في البيت الأول من بنات الخجوس كما جعل شاربها مسلماً وسماء  
بَعْلًا أو زوجاً ، لأنه اشترأها وخطبها وهو يعنى نفسه . أما في البيت الثاني فقال  
إنها ظلت طويلاً في شجرة الكرم ، وظلت واقفة بها شفقة لها وحنواً عليها . وقال في  
البيت الثالث إنهم شَقَقُوا لها في دَنَّاها ثُقُبًا وهي تسيل منه حمراء مهتزة ، كأنها  
ألسنة حيئات ترتجف من القتل ، فهي لا تكف عن إرسالها لها خوفاً وفزعاً . ومسلم  
من أمهر الشعراء وأدقهم في التصوير ، وهي دقة تراءى في جميع جوانب ديوانه  
من مثل قوله مصوراً سرعة النوق ونحولها لطول السفر :

إلى الإمام تهادانا بِأَرْحُلِنَا خَلَقَ من الرِّيحِ في أشباحِ ظِلْمَانِ (٢)  
كَأَنَّ إِفْلَاتَهَا والفجرُ يأخذها إِفْلَاتٌ صادرةٌ عن قَوْسِ حُسْبَانِ (٣)

فقد جعل نوقهم كأنما خلقت من الريح لسرعتها ، وصورها في ضمورها  
كأنها ذكور نعام وهي تمرُّ مسرعة مرور ظبية رماها صائد فأخطأها ، فهي لا تني  
عن الانطلاق والعدو الشديد . وقد نوّه القدماء طويلاً بتصويره للسفينة بمثل  
قوله :

إذا أقبلت راعتُ بقِنَّةٍ قَرَّهَبٍ وإن أدبرت راعتُ بقَادِمَتِي نَسْرٍ (٤)  
أَقَلَّتْ بِمَجْدَافَيْنِ يعثورانها وَقَوْمَهَا كَبَحُ اللِّجَامِ من الدُّبْرِ (٥)

كَأَنَّ الصَّبَا تحكى بها حين واجهتُ نَسِيمَ الصَّبَامِ شَى العروسِ إلى الخِذْرِ (٦)  
وهو يشبه في البيت الأول صدرها برأس ثور وحشى كما يشبه مجدافيهما بجناحي  
نَسْرٍ ، ويرسم صورتها في البيت الثاني بمجدافيهما وسكَّانها الذى يقوم جموحها .

( ٤ ) راعت : أفرغت . فنة قرهب : رأس  
ثور وحشى . قادمات النسر : جناحاه ، أراد بها  
المجدافين .  
( ٥ ) أقلت : ارتحلت وسارت .  
( ٦ ) الخدر : البيت الذى تستر فيه المرأة .

( ١ ) يقصد بالعين الثقب . أسبلت : سالت  
( ٢ ) تهادانا : تحملنا . أشباح : أشخاص .  
ظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام .  
( ٣ ) إفلاتها سرعتها وانبعثتها في السير . صادرة  
راجعة . قوس حسان : ضرب مشهور في عصرهم  
من القسي .

أما في البيت الثالث فيشبهها في سيرها الوثيد بالعروس في سيرها الرفيق إلى مخدّرها .  
وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعاني والصور ،  
مضيفاً إلى ذلك حُلًى كثيرة من وَشَى الطباقي والمقابلة والجناس والمشاكله ، وهو  
في ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من زنين قوى محكم ، مزوجا  
بكل ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والحديثة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة  
الجزلة الرصينة التي تلذ الأسماع العربية ، وإذا هي تفسح لمذهب البديع الجديد  
بكل طرائفه العقلية والخيالية ، بحيث يتمتع القلوب والأفئدة .

٥

### أبو تمام (١)

هو حبيب بن أوس الطائي ، وُلد بقرية جاسم بقرم دمشق على الطريق منها  
إلى طبرية ، وقد تعددت الروايات في سنة ولادته ، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢  
وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونُسب إليه أنه قال : ولدتُ سنة ١٩٠ (٢) . والآراء  
متضاربة في صحة نسبه من طيئ ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطي (٣) ،  
وزعم قوم أن أباه كان نصرانياً (٤) يسمّى تدوس وأنه حرّفه إلى أوس وانتسب في  
طيئ . وظن مرجليوث في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم  
أبيه المذكور في المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبنتى

تمام الطائي: حياته وحياة شعره « لنجيب محمد  
البيهقي ، وأبوتمام » لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه  
طباعات مختلفة ، أهمها طبعة دار المعارف بشرح  
التبريزي وقد ظهر منها ثلاثة أجزاء تشتمل على مدائحه ،  
وسُرجع إلى هذه الطباعات ، وما ليس فيها سُرجع  
فيه إلى طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م .

(٢) أنظر في ميلاده وفيات الأعيان وأخبار

أبي تمام للصولي ص ٢٧٢ .

(٣) الصولي ص ٢٣٥ .

(٤) الصولي ص ٢٤٦ وانظر النجوم : الزاهرة

٢٦١/٢ .

(١) انظر في أبي تمام وأخباره وأشعاره ابن  
المعز ص ٢٨٣ والأغانى (طبع دار الكتب)  
٣٨٣/١٦ وتاريخ بغداد ٢٤٨/٨ والموضح ص  
٣٠٣ وابن خلكان (طبعة سنة ١٢٩٩ هـ)  
١٥٠/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨/٤ وشذرات  
الذهب ٧٢/٢ ومرآة الجنان ١٠٢/٢ وكتاب  
الموازنة بين الطائيين للآمدلي وأخبار أبي تمام  
للصولي ونبأ الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي  
ودائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي تمام ومن  
حديث الشعر والنثر لعه حسين والفن ومذاهبه في  
الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢١٩ وأبو

طه حسين على هذا الظن أنه يوناني الأصل<sup>(١)</sup> ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشع بين نصارى السريان<sup>(٢)</sup> . ونصرانية أبيه — إن صححت — لا تنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهور من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائي صليبية<sup>(٣)</sup> ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيئاً وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجلوا لها في عصره أمجاداً حربية ، مما يدل على أنه طائي عريق وعربي أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضاً في نشأته ، فقيل إنه نشأ بمصر يستقى الناس في مسجدها الكبير ، وأكثر المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بمحاثك كى يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف — منذ نعومة أظفاره — إلى حلقات المساجد ينزل مما كان يجري فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه به إلى بعض اليمنيين والظالمين في بلده وفي حمص مثل نوح بن عمرو السكسكيّ وبنو عبد الكريم الظالمين . وزراه يولّي وجهه نحو مصر قاصداً عيّاش بن طبيعة الحضرمي الذي كان يقوم أحياناً على شرطتها وخراجها ، وله يقول في إحدى مدائحه<sup>(٤)</sup> :

وأنت بمصر غايتي وقرابتي بها وبنو الآباء فيها بنو أبي

وهو يشير دائماً في مديحه له إلى حرمة منه وأنه يمتنّ مثله ، ويلجج في الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء . ويظهر أنه عاد فازوراً عنه ، مما جعله يكتر من عتابه ، حتى إذا يش منه أصلاه بنار هجائه . وليس بين أيدينا ما يدلُّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عياش ، غير أن في كتاب « الولاة والقضاة » للكندی أشعاراً له تتصل بأحداث مصر بين سنتي ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها في تلك الفترة ، وفي هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرّف على عبد الله بن طاهر في ولايته على مصر ( ٢١١ — ٢١٣ هـ ) وقد نوّه به وبقضائه فيها على الفتن . وفي ديوانه بيتان هجا بهما

(٣) الأغاني ١٦ / ٣٨٣ وجمهرة العرب لابن حزم ( للطبعة الثانية بدارالمعارف ) ص ٣٩٩ .

(٤) الديوان ( طبع دارالمعارف ) ١ / ١٦٢

(١) مقدمة نقد النثر لقدامة ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص ٩ وانظر مقالته عنه في كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ( طبع دارالمعارف ) ٢ / ٧٢ .

المطلب بن عبد الله الخزاعي معلناً له أن مدحه فيه كان كذباً وبهتاناً ، وقد ولي المطلب مصر في سنتي ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته ، فهل يعني ذلك أنه نزل مصر مرتين : مرة في أواخر القرن الثاني ومرة في أوائل العقد الثاني من القرن الثالث ؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل في ذلك ، وخاصة أنه ليس في ديوانه مديح للمطلب ، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه .

وقد عاد إلى موطنه في سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة في كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسي الذي كافح بابك كفاحاً مريراً ، وخانه القدر فسقط في ميدان النضال لأوائل هذه السنة . وتعمقت الحادثة نفس أبي تمام فبكاه بكاء حاراً أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتمل به مكانة ممتازة بين الشعراء . وأخذ يتردد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل جيش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبي ، ونراه يقول في إحدى مدائحه له (١) :

بالشام أهلي وبغدادُ الهوى وأنا بِالرَّقَّتَيْنِ وبالفُسْطَاطِ إِخْوَانِي  
وما أظنَّ النَّوِيَّ تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تَشَافَهُ بِي أَقْصَى خِرَاسَانَ

وذكره الفسطاط يدل على أنه كان حديث عهد بالأوبة منها ، ولا تزال ذكرى واليها عبد الله بن طاهر حية في نفسه ، ولذلك ينوي أن يزوره في خراسان : ولايته الجديدة ، وهو يتمنى أن تكتحل عيناه بمراى بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها في صحبة محمد بن حسان الضبي إماماً قصيراً (٢) ، وفي ديوانه قصيدة موجهة إلى الحسن بن سهل الذي كان جوده الغدق لا يزال يسيل على الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول (٣) :

سِتُّ وَعِشْرُونَ تَدْعُونِي فَاتَّبِعْهَا إِلَى الْمَشِيبِ وَلَمْ تَظَلْمِ وَلَمْ تَحُبَّ (٤)  
فإذا صح أنه مدحه بها في بغداد فإنه يكون قد زارها وهو في السادسة والعشرين من عمره . على أنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلى الموصل متنقلاً بينه وبين موطنه ،

(١) الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/٣٠٩ . (٢) الديوان (طبعة دار المعارف) ١/١١٥ .  
(٣) ابن المعتز ٢٨٣ . (٤) لم تحب : من الحوب وهو الإثم .

وربما بدأ مدبجه للملك بن طَوْقِ التعلبي والى الجزيرة منذ هذا التاريخ . ونراه يحاول المثل بين يدي المأمون في إلمامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته على الروم ، وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : ( كُشِفَ الغطاء فأوقدى أو أحمدي ) وفيها يعلن له حبه لآل البيت مشيدا بقضائه على الثورات والفتن بمصر ، يقول (١) :

وانتاش مصر من اللُتيا والتي بتجاوزٍ وتعطفٍ ونعمدٍ

والمعروف أن المأمون زار مصر في أول سنة ٢١٧ للهجرة ، وقد عاد منها إلى دمشق ثم توجه منها إلى ثغر « أذنة » معسكراً بها وجيوشه تتغلغل وراء البيزنطيين ، مبددين لجموعهم في غير جبهة ، وتقدم بنفسه إلى حصن « لؤاوة » فأناخ به ، وجيوشه تغدو وتروح في آسيا الصغرى منزلة بالروم هزائم ساحقة . ونرى أبا تمام يتغنى بتلك الانتصارات في ميميته للمأمون تغنياً بديعاً بمثل قوله يصف تلك الجيوش واستبسالها في القتال (٢) :

مُسْتَرسلين إلى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحامُ  
أسادُ موتٍ مُخدراتٌ مالها إلا الصَّوارمَ والقنا آجامُ (٣)

وقد مضى يشيد بقائدين من قواد هذه الحروب ، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني والى أرمينية وقد سجل له انتصاراً حريياً ماحقاً على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولتى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده ، يقول (٤) :

ولما رأى تُوفيلُ راياتك التي إذا ما اتلاَّبت لا يقاومها الصُّلبُ (٥)  
تولَّى ولم يألُ الرَّدَى في اتِّباعه كأن الرَّدَى في قصدهِ هائمٌ صبُّ  
كأن بلاد الروم عُمَّتْ بصبيحةٍ فضمَّتْ حَمَاهَا أَوْرَغاً وسَطَّهَا السَّقْبُ (٦)

(٥) اتلاَّبت : تتابع هزما . الصلب : جمع

صليب ، ويريد النصاري .

(٦) السقب : ولد الناقة التي عقرتها ثمود

فصارت شوثاً عليهم وهلاكاً لهم .

(١) الديوان ٤٨/٢ . انتاش : خلص .

(٢) الديوان ١٥٦/٣ .

(٣) مخدرات : ساكنات بيوتها وغاباتها .

آجام : جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف .

(٤) الديوان ١٩٧/١ .

وأما القائد الثاني فجعفر الخياط ، على أنه لم يتوسع في تصوير حروبه وانتصاراته ، ونظن ظناً أنه لقي في هذا الحين المعتصم إذ كان المأمون يعيد إليه بقيادة بعض تلك الجيوش الغازية للروم ، فقد جاء في بعض أخباره أن أول لقائه له إنما كان في المصيصة إحدى ثغور الشام<sup>(١)</sup> ، وفي بعض الروايات أنه إنما لقيه بعد بنائه لسُرَّ من رأى وفتحها لعمورية في سنة ٢٢٣ للهجرة غير أنه في إحدى مدائحه له يقول<sup>(٢)</sup> :

أرْبِعِنَا فِي تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً حَقًّا لِهِنَّكَ لِلرَّبِيعِ الْأَزْهَرِ<sup>(٣)</sup>  
 وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد في تلك السنة ، وكأنه شدَّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبى القائم على شرطة بغداد وأعمالها ، وزراه يشيد بانتصاراته على الحميرة الذين ثاروا بالجليل شمالي إيران لسنتي ٢١٨ ، ٢١٩ إشارات رائعة<sup>(٤)</sup> . ويظهر أنه لم يلبث أن ارتحل إلى عبد الله بن طاهر وإلى خراسان ، واستقبله دو ومن حوالة من الكُتَّاب والشعراء استقبالا حافلا ، ويقال إنه لما أنشده قصيدته فيه : (هَسُنَّ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبِهِ) نَسَّتَرُ عَلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ . وقد دبَّج قصائد كثيرة في رئيس ديوانه وكتَّابه محمد بن الهيثم بن شُبَّانة وأيضاً في كثير من العُمَّال والقواد هناك مثل محمد بن المستهل ودينار بن عبد الله وحفص بن عمر الأزدي وعلي بن مرّ ، ونوّه في طريقه بكثير من الولاة وخاصة الحسن بن رجاء وإلى فارس . وفي عودته نزل بهمذان على أبي الوفاء بن سلمة ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة وهو مطبوع مراراً ، وطُبِعَ له شرحان : شرح التبريزي وشرح المرزوقي ، وهو يصور لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبي تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربي ودرره النفيسة في القديم والحديث .

وعاد إلى « سُرَّ من رأى » وأخذ يتغنّى بانتصارات القواد على بابك الخرمي وكان قد ثار منذ سنة ٢٠١ للهجرة ونازله كثيرون من قواد المأمون ، وما تُوفى

(١) "صولي ص ١٤٤ .

(٢) الديوان ١٩٣/٢ .

(٣) لهنك : لغة في لإنك .

(٤) الديوان ١٦٨/٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ .

سنة ٢٢٠ حتى يعقد المعتصم للأفشين على الجيوش التي تنازل أتباعه من الحرّمية في الجبال وأرمينية وأذربيجان ، وكان من أهم القواد الذين عصفوا حينئذ بأتباعه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى وقد مضى أبو تمام يشيد بانتصاراته وكأنه يحيى فيه قبيلته طيئاً وأمجادها الحربية الحديثة ، ومن ثمّ لم يترك له انتصاراً دون أن يسجله في ملحمة رائعة . ومجد بجانبه بطلا عربياً ثانياً ممن نكلوا ببابك وأصحابه تحت لواء الأفشين هو أبو دُلف العجلي ، وكان فارساً مغواراً ، وغيشاً مدراراً ، فنوّه به تنويهاً رائعاً . وأخيراً في أوائل سنة ٢٢٣ قدم الأفشين ببابك مقيداً إلى سُرّ من رأى ، فتعالى بها التكبير والضحجج ، وقتل وقطّع جسده وصلب جزاءً وفاقاً لبغيه ونكته بالعهود . وأخذ الشعراء وفي مقدمتهم أبو تمام يهتنون المعتصم والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة ، هي : ( غدا الملك معمور الحمى والمنازل ) و ( آلت أمور الشرك شرّ مال ) و ( بدّ الجياد البدّ )<sup>(١)</sup> فهو دفين ) . ولم يلبث تيوفيل إمبراطور بيزنطة أن أغار على زبّطرة بالقرب من سُميساط وأحدث في طرف بلاده ، واستشاط المعتصم غضباً ، فجهّز الجيوش لغزو الروم ، والتقى بتيوفيل وهزمه هزيمة ساحقة ، افتتح على إثرها عمورية وتفرقت جيوشه في آسيا الصغرى تمحق الروم محقماً ، وتوطئهم صغارا وذلا . وكان لمحمد بن يوسف الثغرى في تلك الحروب دور كبير جعل أبا تمام يتغنّى به وبانتصاراته طويلاً على نحو ما تصور ذلك قصيدته : ( لا أنت أنت ولا الديار ديار ) و ( ما عهدنا كذا نحيب المشوق ) وهو فيهما يسمّى كثيراً من الحصون الرومية التي افتتح أقالها ، مصوراً كيف تغلغل حتى خليج القسطنطينية سائقاً بين يديه مئات الأسرى والمغانم الكثيرة . ودُرّة تلك الحروب قصيدته في عمورية التي امتدح بها المعتصم : ( السيف أصدق أنباء من الكتب ) وهي ملحمة رائعة .

وأخذت تتوثق علاقة أبي تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبي دؤاد مستشار المعتصم وقاضى قضائه ، وبأحمد بن المعتصم وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها . وما نكاد نتقدم في سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيناً بطبرستان ، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغراً إلى « سُرّ من رأى » في سنة ٢٢٥ فيقتل ويصلب

(١) البذ : كورة بين أران وأذربيجان خرج بها بابك .

بجانب بابك . وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر ويتوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبي دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه في غيايات السجون ، ويموت ، فيصُلب بجانب بابك ، ثم يُحرقُ بالنار التي كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة (١) :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عواري فحذارٍ من أسدِّ العرين حذارٍ  
وقد صورَّ فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنم الدولة ونقضه لما بينه وبين  
المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذي أورده موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار  
وصلبه قبل ذلك بجوار بابك وما زيار يقول :

ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سِرُّ الزناد الواري (٢)  
ناراً يُساور جسمه من حرِّها لهبٌ كما عَصَفَتَ شِقِّ إِزَارِ (٣)  
صَلَّى لها حَيًّا وكان وقودَها مَيْتًا ويدخلها مع الفُجَّارِ  
ولقد شَفَى الأحشاءَ من بُرْحانها أن صار بابكُ جارَ ما زيار  
سودُ الثيابِ كأنما نسجت لهم أيدى السَّمومِ مَدَارِعًا من قارِ (٤)  
كادوا النبوة والهدى فتقطَّعتُ أعناقُهم في ذلك المضمار

وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥  
وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن ودب وظل يمدح أبا سعيد الثغري وخالد بن  
يزيد والى أرمنية ومالك بن طوق التغلبي والى الجزيرة ، ومدح موسى بن إبراهيم  
الرافقي والى دمشق للمعتصم والواثق . ونهاهه الرؤساء وكبار رجال الدولة . وتوفى  
المعتصم وخلفه الواثق فهناهُ وعزَّاه بقصيدته البديعة : ( ما للدموع تروم كلِّ مرام )  
ويُضنِّي عليه مدائح مختلفة . ويظهر أنه أخذ يحس منذ ولاية الواثق سنة ٢٢٧ مله

(١) الديوان ١٩٨/٢ .

طولا .

(٢) يشير بسر الزناد الواري إلى حرقه بالنار .

(٣) يشير إلى صلب الثلاثة الأفشين وبابك وما زيار ،

(٤) يشير إلى أنه حرق بالنار وهو مصلوب على

وأراد بسواد ثيابهم سواد جلودهم بالشمس وغبار  
الرياح . ومن أجل ذلك يشبهه بإزار عصفور نصفه

من حرفته ، وأنها تضطره أحياناً لبذل مديحه لغير مستحقه من مثل موسى بن إبراهيم الرافقي ، فتمنى لو صار له عمل في الدولة يدرّ عليه ما يكفيه مؤنثه ، وسرعان ما حَقَّق له صديقه الحسن بن وهب أمنيته ، فعيَّنه على بريد الموصل ، وظل هناك عامين ، جاءه فيهما نعي خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني فبكاه وبكى بطولته بكاء حاراً ، ولا يدور العام حتى يلبي داعي ربه سنة ٢٣١ للهجرة ويرثه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم الحسن بن وهب ، وفيه يقول (١) :

فُجِعَ القَريظُ بِخاتَمِ الشُعراءِ      وَغَدِيرِ روضتها حبيبِ الطائِي  
ماتاً معاً فتجاورا في حُضرةٍ      وكذلك كانا قَبْلُ في الأحياءِ

ويقال إن بني حُميد الطوسي بنوا على قبره قبةً خارج باب الميدان على حافة الخندق (٢)

وأخبار أبي تمام في أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية في زوجة له ، ويقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف (٣) . وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثراً . ويقول الصولي إنه كان أسمر طُوالاً ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدي المعتمم وغيره (٤) . ويقال إنه كان من أكثر الناس مزاحاً (٥) . تسعفه في ذلك بديهة حاضرة . وفي ديوانه رائية يمدح بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها يفضل علياً ويشيد بمواقفه في عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ . الحق أنه لم يكن متشيعاً ، أما هذه القصيدة فنظن ظناً أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق في سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر ، وكان حينئذ بمصر وفي القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول في مطالعها (٦) :

وإن نَكِيرًا أَنْ يَضيقَ بِنِ له      عشيرةٌ مثلي أو وسيلته مِصرُ

(٤) الصولي ص ٢٧٧ .

(٥) ابن المعتز ص ٢٨٣ .

(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ١٤٣ .

(١) الصولي ص ٢٧٧ .

(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٩ .

(٣) الصولي ص ١٤٤ .

وزاره في أول قصيدة أتى فيها المأمون يصرح له فيها كما قدمنا بأنه مشغوف بحب آل محمد ، تقريباً إليه وزُلفى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثاً عن قصيدته<sup>(١)</sup> :

ووسيلتى فيها إليك طريفةٌ      شامٍ يدين بحبِّ آل محمدٍ  
 نبطتُ قلائدُ عزمه بمحبرٍ      متكوِّفٍ مُتدَمِّشٍ مُتَبَغِّدٍ<sup>(٢)</sup>  
 حتى لقد ظنَّ العُوةَ - وباطلٌ -      أن قد تجسَّم في روح السيدِ<sup>(٣)</sup>

ومعنى ذلك أن تشيعة في القصيدتين جميعاً إنما كان في سبيل المأمون ، يحاول أن يمتَّ إليه بما يعطفه عليه . وفي أخباره أن الحسن بن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها<sup>(٤)</sup> ، وتوسع بعض الباحثين في الخبر فقالوا إنه لاحظ عليه تقصيره في أداء الفروض الدينية<sup>(٥)</sup> . وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه ، وأيضاً ففيه قصيدة وصف بها حجة حجتها<sup>(٦)</sup> . وليس في ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثاً أو ماجناً . يلهو ولكن بقسطاس وكان خصومه حاولوا أن يغيضوا منه فزيّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه . أما الخبر الذي يُذكر فيه أنه كان له غلام رومى وللحسن بن وهب غلام خنزرى وكل منهما يتعشق غلام صاحبه<sup>(٧)</sup> ، فهو أدنى إلى الفكاهة ، ولعل غلام أبى تمام المذكور هو الذى كان ينشد شعره . والحق أنه كان وقوراً وكان يترفع عن الدنيا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبه .

وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقضَّ على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثّلها تمثلاً دقيقاً ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها في الجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا في قصائده<sup>(٨)</sup> لخالد بن

- (١) الديوان (طبع دارالمعارف) ٥٥/٢ .  
 (٢) محبر : يقصد نفسه وأنه محبر القصائد ومجودها . متكوِّف يقصد أنه كوفى تشيعاً . متبغِّد : يقصد أنه ظريف من أهل بغداد .  
 (٣) السيد : يريد السيد الحميرى المشهور بتشيعه .  
 (٤) الصول ص ١٧٢ .  
 (٥) انظر مقالة مرجليوث عن أبى تمام في دائرة المعارف الإسلامية .  
 (٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٩ .  
 (٧) الصول ص ١٩٤ .  
 (٨) الديوان (طبع دارالمعارف) ١٩٤/١ وانظر ٨٧/١ وما بعدها .

يزيد بن مزيد الشيباني ومالك بن طوق التغلبي ، وكذلك حين يقرن وقائع بعض الأبطال ودويتها في الخافقين إلى وقائع جادلية وإسلامية مشهورة على نحو ما نرى في تمجيده لانتصار إسحق بن إبراهيم المصعبي على الحميرة بالجليل<sup>(١)</sup>، وكان يعرف كيف يحول التاريخ شعراً على شاكلة قوله في إحدى قصائده لخالد بن يزيد الشيباني وانتصار قومه في يوم ذي قار المشهور على الفرس<sup>(٢)</sup> :

لهم يومٌ ذي قارٍ مَضَى وهو مُفْرَدٌ      وحيدٌ من الأشباه ليس له صَحْبٌ  
به علمتُ صُهْبُ الأعاجمِ أَنه      به أعربتُ عن ذاتِ أنفسها العُربُ<sup>(٣)</sup>  
هو المشهدُ الفَصلُ الذي ما نَجَا به      لكسرى بنِ كسرى لا سَنَامٌ ولا صُلبُ<sup>(٤)</sup>

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جذب شديد ، فابتغت الرعي في أرض العراق ، وكتب والى الخيرة كسرى هل يأذن لهم في الرعي ؟ فاشتراط أن يقدموا رهائن منهم ، ولما طُلبت من رئيسهم حاجب بن زُرارة ، قال : ليس معي إلا قوسى ، فاسترهنوها منه ، ووفى لهم بما وافقهم عليه . فصار ذلك معدوداً في مناقب بنى تميم . وإلى ذلك يشير أبو تمام في قصيدة يمدح بها أبا دكّاف متحدثاً عن المنقبة الكبرى لشييان يوم ذي قار ، إذ فتكوا بالفرس الذين كسوا تمياً منقبة القوس وأدالوا منهم للعرب والعروبة ، مسجلين هذا المجد الحقيقي على التاريخ ، يقول<sup>(٥)</sup> :

إذا افتخرت يوماً تميمٌ بِقَوْسِها      وزادتُ على ما وطَّدتُ من مناقبِ  
فأنتم بذي قارٍ أمالتُ سيوفكم      عروشَ الذين استرهنُوا قوسَ حاجبِ  
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوا بها      محاسنَ أقوامٍ تُكُنُّ كالمعايبِ  
مكارمُ لَجَّتْ في علُوِّ كَأَنما      تحاولُ ثأراً عند بعض الكواكبِ

وقد تحدثنا في الفصل السابق عن تعمقه في مذاهب المتكلمين وفي الفلسفة والمنطق تعمقاً جعله ينشر في معانيه الأضداد المتنافرة نشرأً يدخل البهجة على

(٤) السنام : كناية عن النوق . والصلب

هنا : كناية عن الخيل .

(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٢١٥

(١) الديوان ٣/٣٠٠ وما بعدها .

(٢) الديوان ١/١٩٥ .

(٣) صهب : شقر شعر الرأس ، ويوصف

الأعاجم بالشقرة لغلبة ذلك عليهم .

النفس بما يصور من تعانقها في الحياة ، تصويراً يدل على عمق غوره في الإحساس بحقائق الكون ، وبترباط جواهرها ، حتى الجواهر التي تبدو متضادة ، فإن بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقي التقاء وثيقاً ، على شاكلة قوله (١) :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ السَّرَىٰ وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنُضْرَةٍ مِنْ شُحُوبٍ (٢)

وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وهي عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون ، فإذا بعضها يُرَى من خلال بعض ، بل إذا بعضها يتخذ دليلاً وحجة على بعض ، من مثل قوله لمن عدلته على ضيق ذات يده (٣) :

لَا تُنْكِرِي عَطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَنَىٰ فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِ  
وقوله في تحبيب الرحلة عن الأوطان (٤) :

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مَخْلُقٌ لِلدَّيْبِاجِيِّهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدُ (٥)  
فإني رأيت الشمس زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ (٦)

ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض في كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة في الصباح والغروب إذ يجلله دائماً شفق يأخذ بالألباب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله (٧) ، كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع (٨) ، حتى قالوا إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعاً ، كما تسنده قوة ملكاته التي جعلته يُعَدُّ بالمنطق ، وبالشعر العربي قديمه وحديثه ، كما تسنده قوة ملكاته التي جعلته يُعَدُّ بحقٍّ حامل لواء الشعر العربي في عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ، أما الخصائص العقلية فتتضح في دقة معانيه وغوصه على طرائقها

(١) الديوان ١/١٢٦ .

(٢) الخفض: سعة العيش . السرى: السيريليا ،

(٣) سرمد : دائم .

غناء: نفع .

(٤) انظر مناقشتنا لهم في كتابنا الفن ومذاهبه

(٥) في الشعر العربي ( الطبعة السادسة بدار المعارف )

(٦) الديوان ٣/٧٧ .

ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٧) الديوان ٢/٢٣ .

(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .

(٩) مخلق : من أخلق أى أبلى . ويريد

النادرة ، محتكماً إلى قانوني التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص الزخرفية فتتضح في روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوجان عنده تزاوجاً رائعاً بحيث يصبح الزخرف عملاً عقلياً والعمل العقلي زخرفاً نادراً لا يكاد يتعاق به أحد .

والمديح أهم الأغراض التي تتجلى فيها خصائصه ، وهو في كثير منه ، بل في جمهوره ، يحتفظ بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسب ، مودعاً فيها كثيراً من لفتاته وخواتمه النادرة التي تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يخضع التفكير للشعر ، وكأنه فياسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق ، وهل هناك جانب في شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيراً متصلاً ، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواتمه وكيف يبرزها في معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله في تصوير أيام عشقه الماضية<sup>(١)</sup> :

أعوامٌ وصل كاد يُنسى طولها      ذكرُ النوى فكأنها أيامٌ  
ثم انبرت أيام هجرٍ أردفتُ      بجوىٍ أسيٌّ فكأنها أعوامٌ  
ثم انقضت تلك السنون وأهلها      فكأنها وكانهم أحلامٌ

وواضح أن قانون التضاد يلعب بأقواسه الأرجوانية في هذه الأبيات ، فالأعوام أيام ، والأيام أعوام ، وأوقات الصحو الممتعة أحلام . ومن طريف حكمه في الغزل والنسب قوله<sup>(٢)</sup> :

أجدرُ بجمرةٍ لوعةٍ إطفأوها      بالدمع أن تزداد طولَ وقودٍ  
وقوله<sup>(٣)</sup> :

أحلى الرجال من النساءِ مواقعاً      من كان أشبههم بهنَّ خُدوداً  
وقد ردّد كثيراً في تضاعيف نسبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث ، حتى ليقول ضحيراً متأففاً منه وون سياسته الحرقاء<sup>(٤)</sup> :

(٣) الديوان ١/٤١٥ .

(٤) الديوان ٢/٣٢٤ .

(١) الديوان ٣/١٥١ .

(٢) الديوان ١/٣٩٢ .

لقد ساسنا هذا الزمان سياسةً      سُدى لم يسسها قطَّ عبدٌ مجدعٌ  
تروح علينا كلَّ يومٍ وتغدى      خطوبٌ كأن الدهر منهن يُصرعُ

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألم ابن الرومي والمتنبى الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم ، وأيضاً فإنه هو الذى ألم المتنبى باعتداده بنفسه وما طوى فى ذلك عنده من فخر محتدم ، وأقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه فى مديحه للحسن بن سهل (١) :

وغرَّبتُ حتى لم أجد ذكرَ مشرقٍ      وشرقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا  
خطوبٌ إذا لاقيتهنَّ ردَدْنى      جريحاً كأنى قد لقيتُ الكتائبا  
وقد يكهّمُ السيفُ المسمى منيةً      وقد يرجع المرءُ المظفرُ خائباً (٢)  
وكنت امرأةً ألقى الزمان مسالماً      فأليتُ لا ألقاه إلا محارباً

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى تلقاه عند المتنبى مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر ، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عوداً وأصلب من الزمن ، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية .

وكان أبو تمام يضيف إلى نسيبه أحياناً وصفاً لبعيره وما يقطع من الفلوات ، مستمداً من معانى القدماء فى هذا الوصف ومضيفاً طرائفه الحديثة ، كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال لطول رحلته به إلى خراسان ليمدح ابن طاهر (٣) :

رعتَه الفياضى بعد ما كان حِقْبَةً      رعاها وماءُ الروض ينهلُ ساكِبُهُ

فالصحراء بطرقها الوعثة كأنماهى التى رعته إذ أضمرت وأنحلت ، بينما كان يرعى أعشابها ، وهو تضاد بديع . فهو يرعى الصحراء والصحراء ترعاه . وقد ألم بوصف الخمر فى بعض مقدماته للمديح ، وهو ليس ممن يجيدون فى وصفها ، لأنه لم يكن ممن ينغمسون فى إثمها ، وقد يلقانا عنده بعض أبيات طريفة فيها كقوله (٤) :

(٣) الديوان ١/٢٣٠ .

(٤) الديوان ١/٣٤ .

(١) الديوان ١/١٤٧ .

(٢) يكهم : لا يقطع .

وضعيفة فإذا أصابتُ فُرصةً قتلْتُ كذلك قدرةُ الضعفاءِ  
وكانَ بَهْجَتها وبهجةَ كأسها نارٌ ونورٌ قيِّداً بوعاءِ

وقد فسح في مقدماته مراراً للحديث عن الشيب ، وكان قد وخطه في  
سن مبكرة ، وهو لا يحاول تزيينه ، بل يعرف دائماً بأنه قبيح مكروه وخاصة في  
عين المرأة ، ومن طريف ماله فيه قوله (١) :

لو رأى الله أنَّ للشيب فضلاً جاورته الأبرارُ في الخلد شيئاً  
ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو  
لا يبارى في تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده تصويره  
لقمرية وقمرى وهما يرشfan رحيق الهوى بينما هو يتعمقه الحزن ، وكأنما ترى له  
السماء فتستهل بروقها وعودها ، والطبيعة من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة  
والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذناها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس  
الرائع من أعراس الربيع ، يقول (٢) :

غنى فشاقتك طائرٌ غريدٌ لما ترنم والغصونُ تَمِيدُ  
ساقٌ على ساقٍ دعا قمريةً فدعت تقاسمه الهوى وتصيد (٣)  
إلفان في ظلِّ الغصون تالفاً والتفَّ بينهما هوى معقودُ  
يتطعمان بريق هذا هذه مَجْعاً وذاك بريق تلك مُعيد (٤)  
يا طائران تمتعا هنيئتما وعمما الصباح فإننى مجهودُ  
أبكى وقد تلت البروق مضيئةً من كل أقطار السماء رُعود  
واهتزَّ ريعانُ الشباب فأشرقَتْ لتهللُ الشجر القرى والبيد (٥)  
ومضت طواويسُ العراق فأشرقَتْ أذناهُ مُشرقةً وهنَّ حُفود (٦)

(٤) مجعاً : حسواً .

(٥) يريد بريعان الشباب الربيع .

(٦) ومضت : لمعت وتلاذت . وحفود ، جمع حافد ؛ وهو الخادم .

(١) الديوان ١/١٦٨ .

(٢) الديوان ٢/١٤٨ .

(٣) الساق الأولى : القمرى أو ذكر الحمام ؛

والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد : تصيده

وتوقعه في شباكها .

يَرْفُلْنَ أَمْثَالَ الْعَدَّارَى طَوْفًا حَوْلَ الدَّوَارِ وَقَدْ تَدَانَى الْعِيدُ (١)

وهي قطعة رائحة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس، مشاعر أبي تمام المحزون وأحاسيس الطير المبتهجة بالحلب والطواويس المبتهجة بالربيع . ونراه في إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلا بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وقد مضى بحتكم في هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه يجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يترأى في طقسه والشتاء يترأى في زهره (٢) ، بل إن المطر في الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل كما يحمل الصحو بترطيبه للجو نضرة المطر ، يقول :

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ النُّضْمَارَةِ يَمُطِرُ  
وَيَتَسَّعُ بِهِ الْخِيَالُ فَإِذَا التَّنْدَى الَّذِي تَرْتَقِقُ حَبَّاتُهُ عَلَى الْأُورَاقِ وَالْغُصُونِ كَأَنَّهُ  
طِيبٌ سَقَطَ مِنْ غَدَائِرِ السَّحَابِ عَلَى لِمَمِ الثَّرَى وَجِلَاهُ ، يَقُولُ :

وَنَدَى إِذَا أَدَهَنْتَ بِهِ لِمَمُ الثَّرَى خَاتَ السَّحَابِ أَتَاهُ وَهُوَ مُغَدَّرٌ  
وَيَمْضِي فِي حُلْمِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَرَى نَفْسَهُ فِي رِيَاضِ الرَّبِيعِ وَأَضْوَاءِ الشَّمْسِ  
تَخَالِطُ الْوُرُودَ وَالرِّيَّاحِينَ كَأَنَّهُ فِي لَيْلَةٍ مَقْمَرَةٍ جَمِيلَةٍ ، وَالْأَحْلَامُ تَفْدُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ  
صَوْتٍ ، يَقُولُ :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيًا نَظْرِيكُمَا تَرِيَا وَجْهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ  
تَرِيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرَّبِيِّ فَكَيْفَ تَمَّا هُوَ مُقْمِرٌ

وإله بائية (٣) في مديح ابن الزيات استهلها بوصف ديمة ممطرة مصورا فرحة الطبيعة بها بعد الجفاف الطويل ونراه يصل بينها وبين مديحه لابن الزيات وكأنه يرى فيها خلاله وكرمه الفياض . وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء في هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس في وضوح عنده بوحدة القصيدة ، ودأبها بمقدماتها عمل فني نام لا يزال بعضه يتولد من بعض .

(٣) الديوان ٢٩٦/١ وانظر هبة الأيام ص ٣٧ حيث نص على أنها في ابن الزيات .

(١) طوفاً : جمع طائفة . الدوار : صنم كان النساء يظفن حوله في الجاهلية .

(٢) انظر القصيدة في الديوان ١٩١/٢ .

وإذا أخذنا نظراً في معاني مديحه وجدناه يحاول دائماً أن يستنبط منها مبتكرات  
طريقة مستمداً من مناجم عقله الغنية وكنوز أخيلته الثرية التي تحفل دائماً بما يملأ  
النفس إعجاباً به وبشعره ، كقوله يصف جود أبي دأف (١) :

تكاد مغانيه تهش عراضها فتركب من شوقٍ إلى كل راكبٍ (٢)  
وقوله يصور جود المعتصم وكثرة بذله ونواله (٣) :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تجبه أنامله  
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتيق الله سائله  
وقد تحول بوصفه بسالة الأبطال الذين تغنى بمدحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم  
كبرى جسم فيها بطولتهم تجسماً يدلح الحماسة في قلب كل عربي ، ويضرمها  
إضراراً . ونراه يتغنى طويلاً ببطولة محمد بن يوسف الثغري الطائي وما أنزله من  
صواعق الموت على رعوس الحرورية أصحاب بابك ورعوس الروم ، وكأنه قيس  
يتغنى بليلاه . ومن رائع ما له فيه قوله يصور هجومه من الجنوب واقتحامه حصون  
العدو في الشمال ، والثلوج تغطي الطرق والآفاق (٤) :

لقد انصعت والشتاء له وجح يراه الرجال جهماً قطوباً (٥)  
طاعنا منحراً الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوباً  
في ليالٍ تكاد تُبقي بخد الله مس من ريحها البليل شحوباً  
فضربت الشتاء في أخذعيه ضربته غادرته عوداً ركوباً (٦)  
لو أصحنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيباً (٧)

وأمّ ملاحمه قصيدته في عمورية التي مدح بها المعتصم مسجلاً انتصاره العظيم  
على البيزنطيين ، وهو فيها مبتهج ابتهاجاً لا حد له بهذا الفتح المبين ، وقد استهلها

(١) القطوب : العويس .  
(٢) الأخدعان : العرقان البارزان في العتق .  
العود : البعير المسن ركوب : مدلل .  
(٣) أصحنا : أرفقنا السمع . الوجيب :  
الخفقان .

(١) الديوان ٢١٢/١ .  
(٢) العراض : الساحات .  
(٣) الديوان ٢٩/٣ .  
(٤) الديوان ١٧٣/١ وما بعدها .  
(٥) انصعت : رجعت سريعاً . الجهم ،

بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هي تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرُّ تيوفيل إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمورية من كل جانب ، يقول (١) :

فَتَحُّ الْفَتْوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ      نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نُشْرٌ مِنَ الْخُطْبِ  
فَتَحُّ نَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ      وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِ الْقُسْبِ

ويتحدث عن وقعتها وما حققت للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد، بينما هوت بالروم وديارهم في الخضيض. ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها عتيقة منذ الإسكندر ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها وكأما كان نصر جنود المعتصم في يوم « أنقرة » جرباً أصابها ، فإذا هي تركع صاغرة تحت قدمي المعتصم وقد لطح الدم ذوائب فرسانها وجباههم ، والتهمت النيران التهاماً ، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جرب ووجهها من تشويه تسكب في نفوس العرب من القرع والبهجة مالا تُذكر بجانبه فرحة ذى الرمة وبهجته حين كان يلمُّ بربع مية التي تغنت بحبه لها الأحياء والبيد ، يقول :

لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا      لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشْبِ  
غَادَرْتَ فِيهَا بِهَيْمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضُحَى      يَشْلُهُ وَسَطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ (٢)  
حَتَّى كَأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغَبَتْ      عَنْ لَوْنِهَا أَوْ كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغْبِرْ  
ضَوْءُ مِنَ النَّارِ وَالظُّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ      وَظِلْمَةٌ مِنْ دَخَانٍ فِي ضُحَى شَحِبِ  
فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفَلَّتْ      وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا وَلَمْ تَجِبِ (٣)  
مَا رَنَعُ مِيَّةً مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ      غَيْلَانَ أَبْهَى رَبِّي مِنْ رَبِّعِ الْخَرْبِ (٤)  
وَلَا الْخُدُودُ وَقَدْ أَذْمِينَ مِنْ خَجَلٍ      أَشْهَى إِلَى نَاطِرِي مِنْ خَدِّهَا التُّرْبِ

(٣) واجبة ، آفة : غاربة .

(٤) غيلان : ذوالرمة .

(١) انظر القصيدة في الديوان ٤٥/١ .

(٢) الليل البهيم : شديد الظلام . يشله :

يطرده .

وواضح استمداده من قانون الأضداد في وصف حريقها ليلا ، وهو استمداد تخلّق في تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو في الليل البهيم ويتصور كأنه في الصبح المضيء ، بل هو في الضحى المنير ، وكأنما خلع الليل ثيابه بل لكأنما رغب عنها ، بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب ، بل لقد غربت ولم تلبث أن أشرقت في ربوع عمورية . فيا للحلم وبالروعة ، وإن نشوة الظفر ليجرى رحيقها في نفسه ، فإذا هو يحس إزاءها نفس أحاسيس ذى الرمة إزاء مية التي شغفت قلبه حباً . وقد مضى يصور قوة المعتصم وجنوده ، وكيف فر تيوفيل بفاول جيشه أمامه وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وما زال يصور فتك المعتصم بجيوشه وأبطاله ، حتى قال والجدل يغمره :

خليفةَ الله ! جازى اللهُ سَعْيَكَ عن جرثومة الدين والإسلام والحسب<sup>(١)</sup>  
بصُرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلا على جسره من التعب  
إن كان بين صُروف الدهر من رجم موصولة أو ذمام غير منقضب<sup>(٢)</sup>  
فبين أيامك اللاتي نُصرتَ بها وبين أيام بدر أقرب النسب  
أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهم صُفّرَ الوجوه وجذّت أوجه العرب<sup>(٣)</sup>

وعواطفه الدينية والقومية بارزة في هذه الأبيات الأخيرة ، بل إنها لتبرز في جنبات الملحمة جميعها ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المتهيج الذي تبدت أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحات مكانها أضواء النصر في كل مكان .

وإذا تركنا ملاحظته إلى مدائح الأخرى وجدناه يلائم دائماً بين مدحه ومدوحه ، فإذا مدح كاتباً شاعراً مثل الحسن بن وهب نوه بأدبه وبلاغته ودرر لفظه ومعانيه ، وكذلك الشأن في مدحه لابن الزيات ، وكان هو الآخر كاتباً شاعراً ، وجلّى في وصفه لقلمه الذي أنشدنا منه قطعة في الفصل الرابع والذي استهله بقوله<sup>(٤)</sup> :

(١) جرثومة : أصل .  
(٢) صروف الدهر : أحداثه . منقضب : منقطع .  
(٣) بنو الأصفر : الروم .  
(٤) الديوان ١٢٢/٣ وما بعدها .

لك القلم الأعلى الذى بشباته تُصابُ من الأمر الكلى والمفاصل<sup>(١)</sup>

وقد استمد فى وصفه له من قانون الأضداد مستنبطاً كثيراً من المعانى اللطيفة الدقيقة . ونحسُّ فى مديحه له وللحسن بن وهب ظاهرة نادرة هى الصداقة التى تنعقد بين رجال الأدب والشعر والفن ، وقد عبّر عنها تعبيراً بديعاً فى قوله لصديقه على بن الجهم الشاعر المعروف<sup>(٢)</sup> :

إن يكُدُّ مطرفُ الإخاء فإننا نغدو ونسرى فى إخاءٍ تالِدٍ<sup>(٣)</sup>  
أو يختلفُ ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدرُ من غمامٍ واحدٍ  
أو يفترقُ نسبٌ يولِّفُ بيننا أدبٌ أقمناه مُقامِ الوالدِ

ومراثى أبى تمام لا تقلُّ عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه لابن حميد الطوسي الطائى ، وكان قد سقط - كما أسلفنا - فى ميدان النضال ، وما إن أتاه نعيه حتى غمس - كما يقول الرواة - طرف رداثه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره<sup>(٤)</sup> وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

فتى كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ دماً ضحكتْ عنه الأحاديثُ والذِّكرُ  
فتى مات بين الطَّعنِ والضَّرْبِ ميتةً تقوم مقام النصر إن فاته النَّصْرُ  
وما مات حتى مات مَضْرَبِ سيفه من الضَّرْبِ واعتلَّتْ عليه القَنَا السُّمْرُ  
وقد كان قوت الموت سهلاً فردّه إليه الحِفاظُ المرُّ والخلقُ الوَعْرُ<sup>(٦)</sup>  
ونفْسٌ تعاف العارَ حتى كأنما هو الكفر يوم الرُّوعِ إن فاته الكُفْرُ<sup>(٧)</sup>  
فأثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ وقال لها من تحت أخمصِكَ الحَشْرُ<sup>(٨)</sup>

(٥) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٠ .

(٦) الحِفاظُ : الذب عن الحمى والمحارم .

الوعر : الصعب .

(٧) يوم الرُّوعِ : يوم الحرب والفرع .

(٨) الأخمص : باطن القدم .

(١) الشبابة : الحد .

(٢) الديوان ٤٠٧/١ .

(٣) يكادى : لا يشر ، ويريد بمطرف الإخاء

حديثه . تالِد : قديم .

(٤) هبة الأيام ص ١٤١ .

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهَى مِنْ سُندُسٍ خُضْرٍ<sup>(١)</sup>  
 مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ غَدَاةَ ثَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرٌ<sup>(٢)</sup>  
 وَحَقًّا قَالَ أَبُو دُلْفٍ لَهُ : لَمْ يَمْتَ مِنْ رُئِي بِمِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ<sup>(٣)</sup> ، فَقَدْ جَسَمَ  
 فِيهِ بَطُولَةُ ابْنِ حَمِيدٍ تَجْسِيمًا رَائِعًا ، وَمَا زَالَ يَتَغَنَّى بِبَطُولَتِهِ وَاسْتَبْسَالِهِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ  
 حَتَّى أَبْدَلَهُ مِنْ كَسْوَةِ الدَّمِ الزَّكِيِّ كَسْوَةَ الْفَرْدُوسِ السُّنْدُسِيَّةِ . وَجَاءَهُ نَعْيُ خَالِدِ بْنِ  
 يَزِيدَ بْنِ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيِّ وَهُوَ عَلَى بَرِيدِ الْمُوصِلِ فَبَكَاهُ بِكَاءٍ حَارًّا ، وَنَرَاهُ يَتَفَجَّعُ تَفَجُّعًا  
 كُلَّهُ حَزْنٌ وَأَسَى عَلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ وَأَبِي عَلِيٍّ وَعَلَى أَخِيهِ لَهُ حَضَرَ وَفَاتِهِ وَفِيهِ يَقُولُ وَاصْفَاءً  
 لِحُلَّةِ النَّزْعِ الْأَخِيرِ<sup>(٤)</sup> :

لِللَّهِ مَقْلَتُهُ وَالْمَوْتُ يَكْسِرُهَا كَأَنَّ أَجْفَانَهُ سَكْرَى مِنَ الْوَسَنِ<sup>(٥)</sup>  
 يَرُدُّ أَنْفَاسَهُ كَرَّهًا وَتَعَطَّفَهَا يَدُ الْمَنِيَةِ عَطْفَ الرِّيحِ لِلْغُصْنِ  
 وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرِ ابْنَانِ صَغِيرَانِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَهَزَّهُ الْخَبْرُ ،  
 وَحَرَّكَ شَاعِرِيَّتَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَنْشَدَهُ مَرْثِيَةً بَدِيعَةً يَقُولُ فِي تَضَاعُفِهَا<sup>(٦)</sup> :

نَجْمَانِ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يَطْلُعَا إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفِقَا  
 وَكَانَ يَجِيدُ الْعِتَابَ وَالْإِعْتِدَارَ ، وَمِنْ أُرْوَعِ اعْتِدَارَاتِهِ مَا قَدَّمَهُ لِابْنِ أَبِي دُوَادٍ  
 حِينَ غَضِبَ عَلَيْهِ لِنَيْلِهِ مِنْ مُضَسَّرٍ فِي إِحْدَى قِصَائِدِهِ لِأَبِي سَعِيدٍ<sup>(٧)</sup> الثُّغْرِيِّ الطَّائِي ،  
 فَقَدْ أَحْسَسَ أَنَّهُ أَذْنِبَ ذَنْبًا عَظِيمًا وَأَخَذَ يَسْتَعِظِفُهُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ<sup>(٨)</sup> :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ تَسْرَى عَقَارِبُهُ بِدَاهِيَةٍ نَادٍ<sup>(٩)</sup>  
 نَشَا خَبِيرٌ كَانَ الْقَلْبُ أَمْسَى يُجْرُّ بِهِ عَلَى شَوْكِ الْقِتَادِ<sup>(١٠)</sup>  
 كَانَ الشَّمْسُ جَلَّلَهَا كَسُوفٌ أَوْ اسْتَرْتَرْتُ بِرِجْلِي مِنْ جَرَادٍ<sup>(١١)</sup>

- (١) دجى : أظلم .  
 (٢) ثوى : مات .  
 (٣) الأغاني ١٦ / ٣٩٠ والصول ١٢٥ .  
 (٤) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٥١ .  
 (٥) الوسن : النعاس .  
 (٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٤٠ والصول ص ٢١٧ .  
 (٧) هبة الأيام ص ٢٢٥ .  
 (٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ٣٧٨ .  
 (٩) عائر : سائر وذائع . ناد : عظيمة .  
 (١٠) نفا : ذائع ومتشتر . القتاد : شجر له شوك كالإبر .  
 (١١) رجل هنا : طائفة .

بِأَنِّي نِلْتُ مِنْ مُضَرٍّ وَخَبَيْتُ      إِلَيْكَ شَكِيَّتِي خَبَيْتَ الْجَوَادَ<sup>(١)</sup>  
 لَقَدْ جَازَيْتُ بِالْإِحْسَانِ سُوءًا      إِذْ نَ وَصَبَّغْتَ عُرْفَكَ بِالسَّوَادِ<sup>(٢)</sup>  
 وَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا      وَمِنْ جَدَّوِكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي<sup>(٣)</sup>

ولم يقبل ابن أبي دؤاد استعطافه فاستشفع عنده بخالد بن يزيد بن يزيد الشيباني ودبج فيه قصيدة يستدر عطفه بها ، موازناً بين استشفاعه عنده بخالد واستشفاع يزيد بن المهلب قديماً بسالم بن عبد الملك عند أخيه الوليد وعفوه عنه . وزراه يحاول أن يبرئ ساحته مما قُرف به وأنه كيدٌ حاسدٌ لعل له فضلاً إذ يذيع فضائله وما يلبث أن يقول (٤) :

لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ      لِلْحَاسِدِ النَّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ<sup>(٥)</sup>

ولأبي تمام أوصاف كثيرة في المطر والسحاب والشتاء وفي بعض الخماع التي كانت تُهدى إليه وبعض الخيل . وله غزل مفرد عن مقدمات مدائحه ، ولكنه لا يبلغ روعة ما يجلبه منه في تلك المقدمات . وله زهديات قليلة وأهاج مختلفة ، وهو لا يجيد في الهجاء ، ويقول الصولي إنه كان لا يجيب هاجياً له حتى لا يستدر سبه (٦) . أما الفخر فله فيه قصائد ينوّه فيها بقومه من طيئ تنوياً على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم (٧) :

أَنَا ابْنُ الَّذِينَ اسْتَرَضَعَ الْجُودَ فِيهِمْ      وَسُمِّيَ فِيهِمْ وَهُوَ كَهْلٌ وَيَافِعُ  
 مَضُوا وَكَأَنَّ الْمَكْرَمَاتَ لَدَيْهِمْ      لَكثْرَةَ مَا أَوْصُوا بِهِنَّ شَرَائِعَ  
 بِهَالِيلُ لَوْ عَايَنْتَ فَيَضُّ أَكْفُهُمْ      لَا يَبْقُنْتُ أَنَّ الرِّزْقَ فِي الْأَرْضِ وَاسِعٌ<sup>(٨)</sup>

وتتوهج في مقدمات قصائده قطع كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتداداً لا حدَّ له ، اعتداد النفوس الكبيرة التي تسعى إلى الكمال واجدة لذتها في هذا السعي

للحاسد فضل على المحسود لأنه يظهر فضله وينشر محامده .

(١) خبت : من الحب وهو نرب من عدو الفرس .

(٢) (٦) الصولي ص ٢٤١ .

(٢) العرف : الجود .

(٧) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٢٧ .

(٣) جدواك : عطائك .

(٨) بها ليل : سادة .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٤٠٢/١

(٥) يريد أنه لولا أن الحسد مذموم لكان

مهما كلفها من جهد مُضْنٍ ومهما لقيت من خطوب ، وهو يعرض ذلك في ثانيا حديثه إلى من شغفن قلبه مصوراً بعد همته وجلده وقوة احتماله للمحن ، حتى لكأنه يبذل كل سابق ولاحق فيما حاول - ويحاول - من اكتساب المجد . وله في ذلك طرائف كثيرة ، كقوله لإحدى صواجه ، وقد تعمقها الأسي لشيبه المبكر (١) :

يوى من الدهر مثل الدهر مشتهرٌ عَزَمًا وَحَزَمًا وساعى منه كالحقْبِ  
فَأَصْغِرِي أَنْ شَيْبًا لَاحَ بِي حَدَنًا وَأَكْبِرِي أَنِّي فِي الْمَهْدِ لَمْ أَشِبِ  
وَلَا يُوْرُقُكَ إِيمَاضُ الْقَتِيرِ بِهِ فَإِنَّ ذَاكَ ابْتِسَامُ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ (٢)  
لَا تَنْكِرِي مِنْهُ تَخْدِيدًا تَجَلَّلَهُ فَالسَّيْفُ لَا يُزْكَرِي أَنْ كَانَ ذَا شَطْبِ (٣)

وعلى هذا النحو يملأ شعره نفس قارته فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولة لبوث الغاب من العرب فحسب ، بل أيضاً بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فني ، وقد دأب على وصف أشعاره بالغرابة وباللآلى\* الفريدة ، يقول (٤) :

مُفَصَّلَةٌ بِاللُّوْلُوِّ الْمُنْتَقَى لَهَا مِنَ الشُّعْرِ إِلَّا أَنَّهُ اللَّوْلُوُّ الرُّطْبُ  
وهي حقاً لآلى\* تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآلى\* سوى منها عقود قصائده وقلائد شعره .

والجبين مع تقدم السن . شطب السيف : طرائقه

التي تظهر فيه بسبب شحذه .

(٤) الديوان ١/ ٢٠٤ .

(١) الديوان ١/ ١١٦ .

(٢) يورقك : يهدك . إيماض : لمعان .

القتير : ابتداء الشيب وأوائله .

(٣) التخديد : الطرائق التي تبدو في الخد